سعيد سالم

# الفلـــوس

رواية

دار ومطابع المستقبل
بالفجالة والاسكندرية

الطبعة الأولى ١٩٩٣

# الفلـــوس

الغلاف للفنان خلف طايع

- ١ -

لا أحد يعلم هل ستكون البداية طلقة رصاص أم قطع شريان أم تناول شراب سام، ولا أحد يعلم هل ستكون النهاية عودة إلى الحياة أو انتقام شيطانى مدمر يكتسح الخونة والجبناء أو تسامح ملائكى يشع بالنورانية والصفاء ..أم أن الحياة تنتهى بعد لحظات ينسحق فيها الكون بأسره ويعود الملك إلى صاحبه يتدبر فى أمره كيف يشاء .. فالصمت المشحون بالتحفز والتوجس يجثم بثقله على المكان، وعلامات الاستفهام ترسم نفسها على وجوه الجميع.

بهو فسيح يضم بين جنباته تسعة مخلوقات آدمية ملتفة حول مائدة طويلة عليها آثار طعام وشراب وبقايا حوار لم يكتمل. صمت يخفى ثورة، وذهول يستتر وراءه وعى وخوف، وترقب تكمن فى طواياه نذر العنف والدماء. العيون تصب جحيمها فى مسار جهنمى حارق ينتهى مداه أعلى السلم الداخلى المفروش بالسجاد الأحمر القانى، والذي تؤدي

نهايته إلى غرفة مكتب عبدالخالق سليم .. أثري أثرياء المدينة.

القصر شبيه بالقلعة . متخم بالأعمدة الرخامية الهائلة والتحف الثمينة والمفروشات النادرة، لكن شبح الموت يحوم حول أرجائه، يبث فى النفوس رعباً يوقف ألسنة الحاضرين عن الحركة ويشل عقولهم عن التفكير." سيد" خادم القصر ينظر فى هلع إلى باب الغرفة التى ابتلعت منذ قليل سيد القصر الحقيقى بعد أن كان يصول ويجول بين الجالسين إلى المائدة.ربما يكون "سيد" وحده هو الذي يدرك مايكابده سيده من مرارة الوحدة وجفاف الأيام وطبعها الخئون. ينظر فى إشفاق إلى زوجة عبدالخالق. يتفكر طويلاً فى معضلة توزيع الأرزاق على العباد كما تشاؤها حكمة الخالق. لماذا يغرق هؤلاء الأثرياء الطيبون فى محيط من التعاسة دون أمل فى النجاة ؟.

أما سمير عبدالسلام فقد كان آخر من وصل إلى البهو الكبير. دخل متهلل الوجه باسم الشفتين يحتضن المكان الذي أوحشه بعينين فرحتين. بعض الموجودين لايعرف من هو الفنان التشكيلى المبتسم. البعض - ممن يعرفونه- فوجئ تماماً بحضوره بعد اختفاء دام عدة أشهر. الشيطان وعبدالخالق كانا يعرفان سبب اختفائه . رجل معلق من رقبته بحبل غليظ. العينان جاحظتان بالموت. اللسان متدل باستسلام مر. اليدان تتأرجحان بعبث استفزازي كريه .. وجوهر المسألة - الذي مازال غامضاً - كان فى حقيقته أمراً مثيراً لتأمل عبدالخالق ودهشته، ثم دافعاً

لسخريته ولامبالاته، ثم مانعاً قوياً من أن ينهى حياته بنفس الكيفية :
عينان. لسان . يدان .. وامرأة تباع فى تأن أو على عجل فى سوق
الأعاجيب التى تحفل بها دنيا الرجال والنساء . تباع بإرادتها أو بغيرها
فى معرض أسرار القلوب وخبايا النفوس، لتدلل بجرأة على عبث
الأسباب والمسببات. تكشف عن انتفاخاتها العلوية والسفلية . ينظر
الرجل إليها بشغف ونهم. العينان جاحظتان. اللسان متدل. اليدان تمتدان
بقوة خرافية تعتصر الجسد العاري بانتفاخاته وانتفاضاته وارتعاشاته. تمر
دقائق ويأتى الموت كاشفاً عن نفسه. يستحيل الشبح إلى كائن عملاق
يتحدي بطولة الأحياء. ربما يلتقى البائع والمشتري قبل حضوره أو بعده
فيتكاسلان عن تبادل التحية أو لايستطيعان تأديتها. ربما تكون
صاحبة الانتفاخات المثيرة منهمكة فى إعداد وجبة من الطعام، أو يكون
صاحب العينين واللسان واليدين منهمكاً فى صراع ضار مع خصم ينافسه
على الرزق أو السلطة. ربما ينكر كل منهما للناس أو للآخر أو حتى
لنفسه أن ماحدث بينهما قد حدث.. وربما يكون حقيقة لم يحدث، فما
حدث فى جوهره - عند عبد الخالق - شئ أتفه من استحقاقه لحظة
تفكير عابرة.

لهذا فانهم ينتظرون عودته من غرفة مكتبه . لقد طلب منهم خمس
دقائق فقط . الآن قد مضى على الزمن الدنيوي ما يقارب ربع الساعة.
زوجته ذات البطن المنتفخ بحملها العنيد ترقب نهاية السلم فى لهفة

وجزع شديدين. لماذا لايجرؤ أحد على الصعود لمعرفة سبب تأخره وكأنما قيد الجميع إلى الأرض من أقدامهم بسلاسل من فولاذ ؟.

والدها ينظر إليها بقلق وتخوف . بعينيه نظرة تساؤل مصيرية سوف تتحدد نهايتها بعد قليل . هل حدث ما قيل أنه حدث أم أنه لم يحدث ؟

يندفع حسين سليم نحو السلم سجيناً تحرر فجأة من قيد قدميه. يقتحم غرفة أخيه تحركه دوافعه ونواياه فيبتلعه اللغز هو الآخر ولايعود. بعد برهة من زمان الصمت يعقبه مجدي بخطوات متثاقلة يحثها عزمه الدفين على التخلص من غريمه فلا يعود.

وحين يستبد القلق بسمير فيخطو خطواته الأولى مندفعاً نحو غرفة الأسرار تنطلق صيحة تهتك بكارة الصمت، ويخرج مجدي من الغرفة وبيده سكين دامية صائحاً في هيستيرية

- قتلته

أما عبدالخالق سليم فلم يزل بعد في غرفة مكتبه ... غرفة مكتبه .. مكتبه .

-٢-

تساءل عبدالخالق سليم هل كانت حياته ستتخذ مساراً آخر لوتزوج من مديحة. انتابته ضحكة غامضة، فالمساران يؤديان إلى نهاية واحدة. وإذا كانت العبرة بالنهاية فما جدوي كيفية المسار؟ . أما البداية فكانت وانتهت. تحولت إلى تاريخ تافه لمخلوق أكثر تفاهة ضمن بلايين المخلوقات. لا يهم أحداً بدايته أو نهايته. وحتى لو اهتم أحد فلا معنى لاهتمامه ولا ضرورة له. أدرك أنه لايفهم هذه الحياة المحيرة، فما الفائدة من العودة إلى بداية المسار؟.

.....

مديحه . لماذا عدت بعد اقتراب النهاية؟ . لقد اضطررت إزاء عودتك أن أفكر كثيراً وأنا لم أعد أحب التفكير. على مضض فكرت فى قدرتك على تجاهل صدمتى عبر هذا الزمن الطويل. أتحبين زوجك أم تحبيننى أم تعتقدين أننى مازلت أحبك ؟

- لست مذنبة فيما حدث .

- كان بوسعك أن تفعلى شيئاً .. نحن نعيش فى القرن العشرين.

نعم ، كان بوسعك أن تفعلى شيئاً، لكنك فضلت عصفور اليد على

عصفور الشجرة. لابأس .. لعله كان موقفاً جديراً بالاحترام، أو على الأقل جديراً بالتأمل، فتأمل الأشياء فعل طيب لكنه يقود إلى التفكير .. وأيامها كنت أحب أن أفكر ففكرت، ولم أجن شيئاً من وراء التفكير ولا من وراء التأمل . لم يقدنى أحدهما إلى شئ . تحول اللون الأخضر إلى رمادي فى بادئ الأمر، ثم أخذ يتلون بألوان مختلفة حتى صار لوناً بلا لون . لكنك مازلت فاتنة شهية . هه. تعالى ندنس معاً طهارة حبنا القديم . نتلامس طويلاً لنشعر بسعادة لاتلبث أن تنتهى بعد لحظات.

قد تظنين أننى سوف أدفع من مالى وجاهى ثمناً لهذه اللحظات المشتهاة. قد تريدين ذلك أو تأبينه. قد أعتقد ذلك أو أشك فى نفس اللحظة فى صحة هذا الاعتقاد. كل هذه الخزعبلات المتداخلة لاتعنى شيئاً. صدقينى. أن ندنس معاً طهارة حبنا القديم أو لاندنسها، فالفرق بين الحالتين لم يعد واضحاً أمامى . إننى مازلت أجهل حتى هذه اللحظة إن كانت آلامك قد ارتقت إلى آلامى أم لا. لذلك لم يكن أمامى إلا أن أستبعد بعث حب قد قتل وووريت جثته التراب. ثم أبدأ من جانبى بمحاولة تلويث الجثة بعد رفع ماتبقى من رفاتها بالمقبرة. ثم أبدأ فى استكشاف موقفك من محاولتى. وبالانتهاء من هذا التسلسل أبدأ فى الفعل. فإن كان موقفك الرفض فسوف أتوقف عن المحاولة . أما إن كان القبول فسوف أتوقف أيضاً عن المحاولة. .وهكذا ترين يا مديحة أننى - فى بعض الأحيان - أستطيع أن أتخذ قراراً، ولعلك تدهشين لو قلت أننى لست أعرف سبب اتخاذه.

تذكرت أشياء عديدة فابتسمت . ثم مضى زمن فاتسعت ابتسامتى.

ثم مضى زمن آخر فانتابتنى رغبة شديدة فى الضحك بصوت عالٍ . ذلك أن صفحة التأمل الجديدة التى أتى بها شرودي كانت فى البدء صفحة بيضاء . بعد قليل من ذلك الزمن - الذي لا أذكر طوله تماماً - رأيت صورة "ميرفت" مطبوعة على الصفحة البيضاء تطالعنى بسمتها الظريفة. أريد أن أقهقه. إن كنت أشك فى كل الأسباب فلست أشك لحظة فى حقيقة السبب الذي دفعنى إلى الزواج منها بعد أن تزوجت مديحة من نعيم . إذن فلابد أن أضحك ولن تتوقف الأرض عن الدوران. الأول تجويف صغير ينشأ فى قلب وجنتها حين تضحك، يشبه تلك الفجوة الرقيقة فى قلب تفاحة حمراء طازجة. مازلت أريد أن أضحك، لكنى لاأستطيع الآن. لو استطعت سأفعلها ولاشك. الثانى خروج حرف الحاء من حنجرتها. ياه... كم أثارنى وأبهرنى انسياب هذا الحرف من فمها الرقيق قادماً من حنجرتها الصغيرة . لم أعترف لها يوماً بهذين السببين كما لم أعترف بهما لسمير . تركت كلا منهما يظن بأسبابه الظنون . المصلحة . المظاهر . الإعجاب . الإنتقام من مديحة. أي شئ إلا الحقيقة. لو اعترفت لما صدقنى أحد، ولو صدقنى أحد لاعتقد أننى مجنون. لكنى أعتقد أن أصدق دليل على سلامة عقلى هو زواجى منها لهذين السببين الجوهريين : الفجوة ، والحاء . لم أفعل كما يفعل سائر الرجال حين يفكرون فى اختيار زوجة . لم أسأل عن حسب أو نسب، وإنما وجدت نفسى مشدوداً بخيوط من حرير إلى فجوتها وحائها، وكنت سعيداً بذلك، بل ومازلت أعتقد أننى كنت صائباً والآخرين مخطئون . لا

بد أن أضحك فأنا عاقل والأرض لن تكف عن الدوران .

- هل تقبلينني زوجاً ؟
- يشرفني ذلك .
- لماذا ؟
- لأني أريدك زوجاً لي .
- ولكني عجوز صعب المعاشرة.
- لا تظلم نفسك . أنت إنسان حتى النخاع.
- من أين لك بهذا التشخيص الواثق ؟
- أنا أدري بغريزتي .

.....

غرد العصفور الأخضر ذو المنقار الأحمر والذيل الأصفر أنشودة حب للكون ولكن أحداً لم يستمع إليه .

-٣-

حين عاد أبوه إلى بيته محمولاً على أكتاف زملائه العمال، وجدوا بومة ميتة على عتبة المنزل. تحالفت الشيخوخة مع المرض ووجد سليم لنفسه وطناً. أصبح قعيد ركن لايتغير من أركان غرفة المعيشة. الكتب

والشاي والسيجارة والركن وسعادة الدنيا.

منذ أن وجدوا البومة على العتبة عرف سليم معنى السعادة الحقة. التزم ركنه. تنفس الصعداء. حزن على ما مضى من عمر الكفاح. تمنى لو استوطن ركنه السعيد منذ يوم ولادته. لم يعد الآن مطالباً بالإنفاق على أسرته. أسقطها من دائرة اهتمامه. يتعجب عبد الخالق لأنه لم يفهم حتى الآن أكان ذلك الإسقاط عن وعى من صانعه أم أنه جاء بلا وعى منه بحيث تفرز سعادة الركن معنى حقيقياً.

- البركة فيك ياعبد الخالق.

- ثق بأن أنك سوف تشفى.

شعر سليم بالخوف. قال بصدق غريب.

- لاتحرمني سعادتي المفاجئة.

كان لا بد أن يبدأ عبدالخالق رحلة استنزاف جديدة يعاود فيها حمل صخرة أبيه العاجز إلى أجل غير مسمى. أصبح من العبث أن يحلم .كتب الزوال على المجد المنتظر. انطفأت جذوة المنى وبات ضرورياً أن تعاش الحياة ولا تكتب .لن يجود الوقت بنفسه ثمناً لمتعة قراءة كتاب أو كتابة قصيدة أو سماع موسيقا. لن يكون الاسم رناناً كما كان فى الحلم. عبد الخالق سليم .. لن يكتب بحروف كبيرة على غلاف ديوان يتناوله النقادويتهافت عليه صفوة الجمهور.

..ينحرف الطريق فجأة إلى اتجاه غير معلوم.

-٤-

لم أكن أعرف أن هناك ضرورة محتومة أن تأتى على الرجل مرحلة من العمر يجد نفسه فيها مدفوعاً بمشاعره دون أن يدري وربما دون أن يريد، نحو امرأة . ولما كنت رجلاً بين الرجال فإننى هوجمت يوماً بتلك المشاعر نحو جارتنا مديحة.

فى البداية لم أتصور أن حملى لصخرة أبى سوف يتيح لى أن أنعم بتلك الرفاهية، ندغدغة المشاعر والسباحة فى دنيا الأمانى والأحلام وماشابه ذلك من أشياء لم تخطر ببالى من قبل .

الذي حدث أننى هوجمت حين لم يكن أمامى بديل عن الدفاع حرصاً على مستقبل أسرتى ، ورغم ذلك لم أدافع وإنما استمرأت الإستسلام للهجوم فأحببت مديحة.

لست أستطيع أن أقدم لنفسى أو لغيري تفسيراً لمعنى هذا الحب، فالبعض يصفنى بالرومانسية المفرطة، والبعض يقول أننى مصاب بذعر جنسى رهيب.

فلما كنت عاملاً بسيطاً فإنى طردت بأدب من منزلها يوم تقدمت طالباً يدها ، وكنت قد تخيلتها مراراً وهى عارية بين أحضانى . ثم شاءت الظروف أن يقع أبى قعيداً لمرض لايرحم ولا أمل فى رحمته بحيث أصبحت بقرار مجهول الهوية رب الأسرة الحقيقى ولم أكن قد تجاوزت الثلاثين إلا بقليل . قال البربري ببشاشة.

- نورتنا وشرفتنا يا " سى " عبد الخالق.

وقالت أمها بعبوس .

- كم راتبك ؟

قال البربري بحياء

- نحن نشتري الرجال

فقالت أمها بجفاء .

- أنا لا أزوج ابنتى من عامل فقير .

أنا الفقير عبد الخالق سليم . عامل بمصنع حجر النار الذي يمتلكه "مسيو آرتين". حلمى كان كبيراً . اندثر بعد إتمام الدراسة الثانوية وهبوط السعادة المفاجئة على أبى بالتزامه الركن . تسلل اللون الرمادي إلى القلب الأخضر لأول مرة . قررت أن أواصل ثقافتى من خلال عملى وقالت أمى .

- سأزوجك من "ست ستها"

وقال أبى :

- مادمت مفلساً فلن تحترمك الأرض التى تمشى عليها، ومع هذا فالأمر كله بيد الله.

أما أنا فقلت .

- يبدو أن الحياة ليست بالسهولة التى أتصورها.

....

قال آرتين فى درسه الأول لى .

- اعلم يا عبد الخالق أن (١ + ١ = ٢) .. لا أكثر ولا أقل .

تأملت المعادلة . درستها جيداً . ثم استوعبتها رغم بساطتها . طردت من منزل حبيبتى ولم أنلها إلا بخيالى .

الفجوة والحاء وركن السعادة الأبدي الذي التزم به أبى وشكى الشديد فى صحة المعادلة . التصاقى بآرتين وانبهاري بعقليته الجبارة طغيا على شكوكى فقررت تأجيلها إلى حين . صارت المعادلة عندي فى ذلك الوقت شيئاً أشبه بأن يكون حقيقياً، بل كائناً ضخماً مجسداً، له هيبة ورهبة، وإن كانت ملامحه مشوشة تفتقر إلى القطع والتحديد.

لاحظت أننى حين أخلو إلى نفسى فإننى أرغب دائماً فى الضحك، والضحك بشدة. ظللت أرقب حالتى وأدرس التحولات الهلامية الغامضة التى بدأت تعرف طريقها إلى نفسى .

مديحة فضلت عصفور اليد على عصفور الشجرة الذي طالما حلقت معه على الأفرع الخضراء.. أما حسين الذي لم أبخل عليه بملبس يليق

بمكانته بين زملائه ولابثمن باهظ لكتاب يرغب فى شرائه، فها هو يقرر الهرب فجأة بعد حصوله على بكالوريوس التجارة. هاجر إلى كندا.

أعددت كراسة خاصة أرقب على صفحاتها وأرصد تلك التحولات الغامضة التى تشد عقلى إلى روحى وتشد روحى إلى عقلى .. لماذا أرغب فى هذا الضحك المجنون وأنا عاقل ؟ .. سوف أكتب متابعاتى للحالة يوماً بيوم . لن يقرأها أحد غيري . أنا الكاتب والناشر والمتلقى والناقد معاً . أستعيض عن حلمى الضائع بكلمات مرصوصة أصنع منها حركة إنسانية شاملة أديرها وأتأمل فى فلسفتها. ربما تقودنى تأملاتى يوماً إلى معرفة الإجابات الصحيحة عن العديد من الأسئلة الهائمة فى مداري والتى ظللت - لجهلى وعجزي - أجيب عنها بلست أدري.

.......

قالت البومة

- ما أحلى الخراب .

-٥-

فى فترة من الزمن يسيرة استطاع آرتين أن يسيطر على تجارة "حجر

النار "، وأن ينتزع من مملكة هذه الصناعة الحيوية لقب الملك. يأمر فيطاع. يمنح ويمنع . تمتزج فى مواقفه طبائع الأرمن واليونانيين بما تتسم به من دقة واتقان للعمل وحرص شديد على إرضاء العملاء، وفن حقيقى فى اجتذابهم والسيطرة عليهم. ربما لاتختلف تلك الطبائع كثيراً عن طباع الأوربيين على وجه العموم، ولكنها حين تقاس بطباع بعض المصريين الذين اقتحموا هذه الحرفة دون خبرة عملية كافية، فإنها تبدو واضحة فى تميزها، وتكمن فى قوتها أسرار نجاح آرتين ومن شابهه فى مجال لا يقبل الخلط بين العقل والعاطفة أو المزج بينهما، فالصناعة علم وآرتين يتقنه، والتجارة فن وهو يحترفه.

هكذا أصبح آرتين ملك الحجر. يسيطر على السوق . يكتسحه . يقهر منافسيه وعلى رأسهم "المعلم جاويش" . أسعار آرتين أقل . بضاعته - حجر النار - ذات نوعية أفضل. سأله عبد الخالق :

- لماذا لاترفع سعرك يامسيو ؟

- أريد أن احتكر السوق بكامله يوماً فلايبيع الحجر فى هذه المدينة مخلوق سواى.

تملك الفزع عبدالخالق. أخذته الدهشة والتهمه الفضول. لماذا تتواجد مثل هذه الرغبة الكاسحة فى التملك والسيطرة عند آرتين أو عند أي مخلوق آخر؟ .. "فلايبيع الحجر فى هذه المدينة" .. ثم فى هذا البلد ثم القارة ثم العالم ثم الكون ثم بعد أن تنتهى الحياة.

لم ينم آرتين من ليل سنواته إلا ساعات قليلة. رآه عبد الخالق وقد التصق قميصه بصدره من غزارة العرق. كان الوقت متأخراً فى الليل، وكان الشهر يناير . جلس ينظر إليه فى ذهول. لم كل هذا الجهد الخرافى؟.. فكر فى كافة الدوافع المعقولة وغير المعقولة التى تؤدي برجل امتلك ثروة لابأس بها إلى أن يقتل نفسه عملاً بهذه الكيفية. أهو المال أم هى الرغبة الجنونية فى اقتحام حواجز السبق والنجاح وتحقيق الضربات القاضية على الآخرين؟ .. ما هو الداعى لكل هذا بينما تسير الحياة سيرها الأبدي بلا توقف؟ .. آرتين ليس بحاجة إلى كل هذا المال الذي جمعه. ربما كان فى ذهنه أنه يريد لنفسه خلوداً عظيماً فى شخص ابنه "ميناس" وربما لم يكن. وفى كلتا الحالتين فإن عبد الخالق لم يكن مقتنعاً ، وفى كل الأحوال الأخري - ومهما كانت الدوافع - فإنه لم يشعر أن مسألة الحياة تقتضى من الإنسان أن يبذل كل هذا الجهد المجنون القاتل.

ويبدو أن مشاعره كانت حقيقية بالفعل، لأنه حين أفاق من تأملاته لآرتين تأكد أنه سائر دوماً فى الطريق السليم. ذلك الطريق الذي يخلو من القرارات الحاسمة والأسباب والمسببات، والمقدمات والنتائج المنطقية وغير المنطقية.

تمرس عبدالخالق بالعمل كمشرف على العمال وكمساعد موثوق به لآرتين. راقب العمال وهم يخلطون الخامات الكيميائية اللازمة لصناعة

الحجر. الوزن يجري بدقة متناهية. تضاف المادة اللاصقة فى النهاية بمعرفة آرتين وحده. هو الذي يقوم بتحضيرها ووزنها بيديه. يغلق عليه باب المعمل فلا يعرف أحد ماذا يفعل. بعد الخلط الأخير تكبس أقراص الحجر وتوضع فى فرن خاص فتخرج أحجار النار صلبة متماسكة صالحة لتأدية وظيفتها فى تجليخ المعادن وتنعيمها.

.....

لم يأتمن آرتين يوماً أي مخلوق على سر تركيب المادة اللاصقة، تلك التى لاتحتاج إلى فرن ذي درجة حرارة عالية يستهلك المزيد من الطاقة كما هى الحال عند منافسيه. من هنا كان سبب رخص بضاعته . لم أحاول أنا الآخر أن اسأله شيئاً عن سر هذه التركيبة كما لم أحاول أن أدس أنفى فى أية عملية حسابية تتعلق بهذه المسألة.

لكن النفقات تعاظمت وازدادت المطالب . لم أجد أحداً اقترض منه سوي آرتين. قال ان مبدأ الإقتراض يتعارض مع معادلته المقدسة. اقترح أن أؤدي عملاً إضافياً بقسم المعمل فى مقابل ماأطلب من قرض.

- لكنى لست كيميائياً.

- سوف تعمل وتتعلم.

كلما ضاقت السبل كنت أتوجه إليه فيكلفنى بعمل إضافى فى أحد الأقسام الأخري.

- لكنى لست محاسباً.

- سوف تعمل وتتعلم عبد الخالق.

أصبحت أشك فى أمر هذا الرجل بعد أن أدركت تعمده أن أعرف كل كبيرة وصغيرة بمصنعه فيما عدا سر تركيبة المادة السحرية اللاصقة.

وجاءتنى مديحة تبكى ..

- مازالت الفرصة أمامك.

- كى أطرد مرة ثانية؟

- تقدم لخطوبتى ولاتعبأ بشئ.

- جيوبى خاوية وعقلى مكدود.

- ألم تعد تحبنى ؟

لم أجد القدرة على تقديم إجابة صادقة. أريد الفلوس وأعمل كالحمار فلاتكفينى. أريد الحب فيتأبى على لأنى مفلس، وطبقاً لمعادلة آرتين لو أضفت إفلاساً إلى إفلاس فالنتيجة إفلاس مضاعف .. ولو ضربت إفلاساً فى إفلاس فالنتيجة إفلاس مربع، وهذا فى واقع الأمر هو حالى غير المبرر.

أنا أعلم أن البلد مليئة بأمثالى من المفلسين، ولكن لست أدري هل تماثل حيرتى من هذا الأمر حيرتهم، أم أنهم قد استسلموا لواقعهم وارتضوا بطمأنينة القلب انتظاراً لنعيم الجنة ؟ ..

إنى أخاف هذا العالم .. ولخوفى منه حكاية .

......

شعر الثعلب بالحرج لوهلة ، مالبث أن حسم الموقف قائلاً :

- حسن .. لن أحكى القصة الآن . لكن قبل القسمة أريد أن أستفسر عن بعض المعلومات الهامة من كل حيوان وحشرة منكم .

صاح الجميع بصوت واحد ممتزج متوحد :

- لا مانع

سأل الثعلب بطيبة وحنان :

- هل تقبلون جميعاً أن يمثلكم هؤلاء الجالسون بالمائدة الرئيسية ؟

أجاب الجميع الجميع بنفس الصوت :

- نعم نقبل



بسط الغروب جناحه على الأفق البعيد، فتداعت فى غيمته نسمات هادئة توحى بالسكينة. تكوم عبد الخالق يعتصر ذهنه تفكيراً فى مسألة المال. العائق الأوحد دون أمانيه. استهوته فى البداية فكرة أن أحداً لايجوز له الإعتقاد فى امتلاك ماله، لأن المال ملك للخالق الذي استخلف مخلوقاته ينفقون منه فى الأرض حسب تعاليمه ووصاياه، ومن هنا فإنه

يرزق من يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء ويهدي من يشاء ويضل من يشاء .. ولما أجري بخياله قياساً نسبياً بين معادلة آرتين الحسابية وبين طرده من منزل حبيبته وهروب شقيقه بمجرد تخرجه فى الجامعة وحاجته الملحة إلى المال لسد النفقات ومواجهة احتياجات فتاتين تعدان حياتيهما للزواج، فان المسألة بدت له أكثر تعقيداً من تلك الفكرة المبسطة التى استهوته فى بداية الأمر . فى ثوان تبددت أحلامه القديمة بأن يمضى حياته متعبداً فى محراب الأدب .

انه يدرك طبيعته الخاصة وتكوينه التأملى، ويعرف الفنان الكامن فى روحه، المعربد فى كل خلية من خلايا جسده. تذكر قصيدة عن المال كتبها شاعر أمريكى يقول فيها : "وستقتل من أجل المال، وستقتل من أجل المال، وستقتل من أجل المال، وستقتل من أجل المال، وستقتل من أجل المال"..

لم يكن من السذاجة بحيث يجرد الأمر بمنطق فلسفى يدعوه إلى احتقار المال فيرفض النظر بعين الإعتبار إلى "وريقات مطبوعة" يتقاتل عليها الخلق، لكنه بالرغم من هذا كان يدرك القيمة الحقيقية لتلك الوريقات ويعرف مدي أهميتها من منطق احتياج الأسرة التى ينتمى إليها. تساءل هل هناك قوة تجبره على هذا الإنتماء الذي يفرض عليه تحمل مسئولية الأسرة ؟

ما أسهل أن يتمرد على هذه القوة متى كانت مفروضة عليه من خارج

ذاته. لكنها كانت مستقرة فى أعماقه صادرة عن قناعة لامبرر عنده للبحث عن تفسير لوجودها.

هكذا تسقط معادلة آرتين من اعتبار عبد الخالق، لكنه لايقرر محوها من ذاكرته بل يخصص لها ركناً يهمله إلى حين، ثم يلتفت بتركيز شديد إلى فكرة مال الله فى الأرض، ذلك الذي لايحق لأحد أن يعتقد فى ملكيته مادام سيأتى يوم يتركه فيه لغيره مرغماً.

كان من الطبيعى أن تقوده تأملاته فى مسألة المال إلى فكرة السعادة باعتبارها الغاية التى يأملها كل من يفكر فى امتلاك المال. أمسك بقلم وورقة. قسمها إلى جداول طولية وعرضية عديدة. خيل إليه أنه لابد أن يفعل شيئاً قائماً على منهج. كتب : المال. الصحة. العلم. الشهرة. المكانة الاجتماعية. الحب. الزوجة الصالحة. الأبناء الأوفياء. راحة البال. الإيمان. الفن. القناعة. الطموح.. كما كتب كلمات أخري وراح يغير بعضها ويكشط البعض الآخر. ثم بدأ يوزع نسباً مئوية مختلفة على كل بند من هذه البنود بحيث تنتهى إجمالياتها جميعاً إلى مائة بالمائة. أعاد توزيعها عدة مرات. وجد نفسه أمام عشرات من الجداول المليئة بالأرقام والنسب المئوية.

تساءل من الذي يقرر صحة هذه التوزيعات. من الذي يحدد الرقم الإجمالى الحقيقى من المائة. من الذي يضمن ثبات الأرقام طيلة العمر بافتراض صحتها. أي البنود هو الأهم وأيهم المهم وأيهم الأقل أهمية. هل

يمكن الإستغناء تماماً عن أحد البنود.

هل هناك توزيع مئوي مثالى يرضى البشر كافة. هل يقبل مخلوق أن يتبادل مجموع العناصر المتممة لسعادته مع آخر حتى لو لم يتساو المجموعان ؟؟؟

تضاعفت أمامه التباديل والتوافيق . استهوته اللعبة وأدرك أنها رغم تعقيدها تعد مسلية وممتعة. أزاح أوراقه. قرر تأجيل النظر فيها إلى حين آخر. بعد ذلك تنفس بعمق. قام وصلى ونام. كان شخيره عميقاً.

......

سأل أحدهم بعد أن تلفت يميناً ويساراً.

- أين الحمار ؟

فسأل آخر

- وأين الأسد وزوجته ؟

اندفع البغل بلا روية كما لو كان سكراناً فاصطدم ببعض المقاعد وأثار ضجيجاً وفوضى. فى النهاية تبين أن الحاضرين جميعاً لايعرفون شيئاً عن جداول السعادة التى حار عبد الخالق فى تركيبتها السحرية الغامضة، أكثر مما حار فى تركيبة المادة اللاصقة ومعادلة آرتين ومعضلة المال.

الكلاب ...

الكلاب تطاردنى طول الوقت. تزوجت مديحة من نعيم مدرس اللغة الإنجليزية. شاءت أن تتعلم اللغة فتستفيد من وقت فراغها ولا تمل طول انتظاري. يومها سخرمنها أبى قائلاً :

- سفيهة بنت سفيه . لا تستحق أن تتعلم .

لم يعجبنى منطق صاحب الركن، فلم أكن أري فى "البربري" سفيهاً لمجرد أنه يبيع السمك على عربة يد. لم أنس حسن استقباله لى بمنزله ليلة أن تقدمت أخطب ابنته مديحة. لكن مديحة تركتنى، وضحك أبى فى ركنه كثيراً، ثم أصيب بنوبة حزن صامتة لم تدم طويلاً. نعيم كان يعلم بقصة حبنا، لكنه - بوريقاته المطبوعة - تجاهل وجودي. أغفل أن فى هذا الوجود أثراً على الحياة يستحيل أن أنكره ولو أنكره العالم بأسره. المزيد من الدروس الخصوصية للتلاميذ يأتى بالمزيد من الوريقات. تتسع حدقات عيون مديحة وأمها. يهزم البربري فى بيته لكنه لايتوقف عن بيع البلطى والقراميط.

الكلاب تطاردنى طول الوقت. لم يبعث حسين برسالة تحوي كلمات رقيقة أو بعض الوريقات المطبوعة. قلت لصديقى سمير :

- إنى أتعذب بسببك كثيراً

- لماذا ؟

- لأننى أشعر بأخوتك أكثر مما أشعر بأخوة أخى.

يقال أنها رابطة الدم. حسن . مطلوب إذن أن أخر ساجداً أمام بعض الكروموزومات غير المرئية والخلايا المنقسمة والعمليات الحيوية المجهولة التى نشأت عن ليلة حب بين أبى وأمى، أو ربما عن لحظة انفعال غامضة سيطرت على أحدهما فأدت به إلى أن يقود الآخر إلى الفراش.

وقد قلت من قبل اننى أخاف هذا العالم .. فقد جاء خطاب من حسين قال فيه أنه أثري وأنه يشارك فى مشروعات ضخمة وأنه وأنه وأنه .. لكن الخطاب كان خالياً من الوريقات المطبوعة التى تزوج بها نعيم من مذيحة والتى يتقاضاها البربري من آكلى لحوم السمك. أي أن الناس يأكلون البلطى والقراميط بنفس الوريقات التى أكلت حبى لمديحة والتى أكلنى بها نعيم كما يأكل بلطية أو قرموطاً صغيراً. أنا عنده لا أزيد عن قرموط مهما قرأت من كتب ومهما اختزنت فى عقلى من فكر ولو احتضن قلبى فى روحه قلب فنان. أنا عند حسين لا أزيد عن وسيلة عابرة جمع بها بعض الوريقات فتعلم وهرب وجمع آلاف الأضعاف من نفس الوريقات ولم يبعث منها لأسرته بواحدة فى خطاب، وهو يعلم كم

حاجتها إليها.

وكنت قد فكرت أن أشرح لمديحة مسألة مال الله فى الأرض فربما رفضت "نعيم" وانتظرتنى، كما فكرت أن أبعث بخطاب إلى حسين أشرح له فيه نفس المسألة فربما بعث إلى ببعض من هذا المال الذي يملكه. تراجعت عن فكرتى خشية أن يتهماننى بالعبط، ورحت أتسلى مرة أخري فى جداول السعادة.

الكلاب تطاردنى طول الوقت ...

فى منتصف الليل دق المعلم جاويش باب شقتى . رأيت النهم إلى المال يتساقط من عينيه. سألته فى دهشة.

- كيف عرفت المنزل ؟

أجابنى الشيطان من فمه

- ليس هذا هو المهم .. لماذا تضيع من يدك فرصة العمر ؟

عرض على ألفين من الوريقات المطبوعة فى مقابل أن أفشى له بسر تركيبة المادة اللاصقة التى يحتكرها آرتين. تعجبت لرجل يبعثر مالاً لا يملكه بغية امتلاك المزيد مما لن يملك.

لابد أنه بحاجة إلى أن أفسر له هذه النظرية. أعتقد أنه سوف يفهمها فهو شديد الذكاء، واسع الحيلة، لكنه فى النهاية سوف يرفضها، فما الداعى لأن أجهد نفسى معه ؟ .. قلت له :

- أشاركك بسر التركيبة وتشاركنى بنصف الربح.

قال بسخرية الواثق من انعدام الضمير عند كل البشر على السواء :

- لن تجد مثل هذا الشريك السخى إلا فى أحلامك.

فاجأته بمطلبى وكانت لهجتى واثقة.

- إذن فلن أقبل أقل من خمسة آلاف جنيه.

بسرعة أجري حساباته وتحسباته بعد أن استوعب ضربتى دون أن يبدو على وجهه أثر لأي انفعال

- موافق ياعبد الخالق .. لنقرأ الفاتحة معاً، والخائن يخونه ربنا.

توقفت طويلاً أمام تلك العبارة لسبب واحد، أنه قالها باقتناع شديد. حاولت بأقصى جهد ذهنى مستطاع أن أنفذ إلى أعماق مايدور برأس هذا الرجل من عمليات عقلية تؤدي به إلى جمع هذا الكيف من التناقض الشديد فى عبارة واحدة "موافق . الفاتحة. الخائن يخونه ربنا".

أعترف أننى عجزت. لكنى لم أتمالك نفسى من الضحك المتعاقب الذي كنت أحسبه بكاء. بعد انصرافه ظللت أفكر فى الله ومعادلة آرتين ثم فى مال الله ومشروعات حسين ثم فى سورة الفاتحة والبومة الملقاة على عتبة الدار، ثم فى الخيانة ووريقات نعيم وقراميط البربري .. وهذه الليلة لم أنم طويلاً .

الكلاب تطاردنى طول الوقت . قال لى تاجر آخر :

- أدفع سبعة آلاف

يبدو أن الكلاب تعجبت كيف استطاع مخلوق بشري لايحمل صفات

النبوة أن يعرف سر لغتها فيبادلها حديث الكلب للكلب، إذ بعثت إلى بتاجر آخر كان نباحه خافتاً جداً حين قال :

- أدفع عشرة آلاف

هكذا صار بإمكانى فجأة أن امتلك عدة آلاف وريقة مطبوعة لا أمتلكها . لكن الكلاب طاردتنى فى النوم. وجدت نفسى محاصراً بين فكاكها الواسعة. كانت أنيابها طويلة يصل طول أحدهما إلى تسعة أمتار ونصف متر وخمسة سنتيمترات وملليمتر واحد . قال لى سمير :

- أنت رجل أصيل المعدن

ابتسمت بقرف وقلت له .

- أنا لا أفهم مثل هذه الكلمات الغريبة

الحقيقة أننى لم أكن أعرف سر التركيبة، وهذا لم يخطر ببال أحدهم لمجرد ثقتهم فى قوة علاقتى بآرتين. تفكر سمير قليلاً ثم سألنى بدهشة طفل.

- وهل لو كنت تعرف السر ... ؟

تعجبت لعلامات الاستفهام والاهتمام الشديدة البادية على وجهه انتظاراً لسماع إجابتى .

- الله أعلم.

أشاح بيده غير مصدق

- لاتقل هذا الكلام يا رجل

أكثر النساء كلاماً عن الشرف هن المومسات، وأكثر الرجال حديثاً عن الفضيلة هم اللصوص والمرتشون. لايحق لى أن أدعى الشرف والفضيلة مالم أتعرض لامتحان حقيقى أنجح فيه، وامتحانى مع الكلاب لم يكن حقيقياً. قال لى آرتين :

- كنت على علم بتفاصيل كل ماجري .

أي أنه كان يراقبنى هو الآخر دون أن أدري. وريقاته المطبوعة هى كل حياته، فكيف لايكرس جهده فى كل وقت ويبث عيونه فى كل مكان حفاظاً على هذه الوريقات وضماناً لتكاثرها ؟ .. قال أبى عن معادلته :

- فليبلها ويشرب ماءها.

لكن آرتين لم يفعل ذلك، وإنما حول الأكسجين الذي يستنشقه من الهواء والدم الذي يسري فى عروقه إلى حد أيمن لمعادلته وحول الحد الأيسر منها إلى مئات الآلاف من الوريقات المطبوعة.

وقال أبى عن جداول سعادتى المرتبكة :

- لاتتدخل فيما ليس من شأنك فلن تقدر عليه .

وسألت آرتين

- أكنت تشك فى نواياى يامسيو ؟

- أبداً، بل كنت أتأكد للمرة الأخيرة من جدارتك بالمفاجأة.

اللعنة عليك ياآرتين بشكوكك ووريقات حسين وتجاهل نعيم لوجودي

وتهافت منافسيك على سرقة أسرارك. أحتاج إليك لكنى لا أحترم معادلتك. أحبك لكنى لا أحبك.

اصطحبنى آرتين إلى المعمل واضعاً يمناه على كتفى كما كان يفعل أبى فى طفولتى. سألته بشغف عن المفاجأة التى طالما وعدنى بها قائلاً انه لن يبوح بمضمونها إلا فى الوقت المناسب . قال لى بابتسامة مجهولة الهوية.

- نحن فى الطريق إليها.

بعد أقل من نصف ساعة كنت على دراية كاملة بسر التركيبة التى حيرت الجميع، وان لم أكن على دراية بسبب إفشائه لى بهذا السر الخطير. حين سألته عن السبب قال :

- هذه هى المفاجأة ياعبد الخالق

كنت فى غاية التعجب من أمر هذا الرجل.

- لماذا ؟

أجاب دون أن ينظر إلى وجهى .

- لأنك منذ الآن صاحب المصنع

فى تلك الليلة لم تطاردنى الكلاب .. وكم أدهشنى ذلك.

.....

من تأملاتى فى الليلة السابقة لسماع المفآجأة وليس قبلها :

" حقيقتى تائهة مجهولة. تبحث عن نفسها وأبحث عنها. أشعر

بنفسى كقطعة من حجر النار الذي أصنعه. يثبت الحجر على عجلة تدور بسرعة شديدة . العمر يجري يطارده الزمن. يدور الحجر. يمرر عليه المعدن بعد تشكيله ليصير إلى حالته النهائية الناعمة الناصعة. يسمونه العمال حجر الجلخ. طريق حياتى من أوله ملئ بالنتوءات. تري كيف تكون نهايته. يحتك الحجر بالمعدن. تتولد شرارات من النار حارقة. تبعثر رياح الفقر المسمومة رماد آمالى المشتعلة. كلما ازداد بريق المعدن المجلخ بدأ قرص الحجر فى التآكل ثم التلاشى. إنى أحترق ولاقطرة ماء يجود بها أحد ".

ابتسم الثعلب وقال بهدوء الواثق من حنكته :

- اصبروا يأعزائى الحشرات والحيوانات .. كل شئ يأتى بالصبر.

## -٨-

فى المساء جلس وحيداً إلى نافذته المحببة التى تطل على البحر. لايعقل أن تستمر الحياة على هذا المنوال. بعد الجفاف ينزل المطر . ينعكس اتساع صفحة البحر على رؤيته لواقعه، فهل يأتى اليسر بعد العسر؟.

يبعث القمر بضوئه البللوري إلى ارتعاشات الموج الخفيفة، نتهتز معها أخيلة الأشجار البعيدة فى أقصى مدي رؤيته. تذكر سمير عبد

السلام وقال لنفسه أن للصداقة نافذة تطل على الأمل وتحرر القلب من بعض مخاوفه. لا بد من توافر أداة للقتال فى هذا العالم الملئ بالوحوش.

لم يفارق مخيلته وجه المعلم جاويش حين جاء يساومه على فقره.

من الأرجح أن هناك أسباباً أخري غير الشرف هى التى دعته إلى رفض خيانة آرتين، لكن .. ماهى ؟.

التجار الآخرون لم يختلفوا عن جاويش فى شئ، النية واحدة والهدف واحد وعبد الخالق سليم هو المعبر الوحيد لطموحهم غير المشروع. ماذا يفعل إنسان أعزل وسط كتيبة مسلحة من الجند ، مدججة بالمدافع والرشاشات. تساءل عبد الخالق. سمير هو المخلوق الوحيد الذي يستطيع أن يجيبه الإجابة التى يحب سماعها. لم يحضر سمير على غير عادته فى مثل هذا الوقت. فكر بالذهاب إليه ثم تردد. عاود النظر إلى صفحة البحر المتلألئة بضوء القمر الفضى فرأي أن جداول السعادة معضلة تتجاوز فى تعقيداتها إمكانيات عقله البشري، وأن العبث فى أرقامها بات أمراً مزعجاً.

إلى أنفه تصل رائحة الشاي المعطر بالنعناع، يصنعه سليم فى ركنه السعيد، ممتزجة برائحة دخان سجائره وصمت الليلة يشف عن غموض طالما حيره. كلما غاب فى دهاليزه المظلمة الجوفاء داهمه سعال أبيه بين اللحظة والأخري، ليفيق على مزيد من الصمت والسكون والغموض. أخيراً حمل حيرته وتوجه إلى صديقه الوحيد.

.....

يرسم ويأكل ويتأمل وينام ويشرف ويتنفس فى مرسمه. أنهار حياته ما عادت تصب فى مكان سواه. موارده المالية محدودة. ترتفع أحياناً وتهبط أحياناً أخري. لكنها لاتترك بصمة تغيير ذات أثر على منهاجه البوهيمى فى الحياة. منابع الجمال عنده تتفجر فى سحر الطبيعة فتنهل منها ملامحه العامة والخاصة. لوحاته صلاة إلى الله وصلواته إلى الله لوحات من التعبد الفنى. يعشق الناس والحياة وينبض قلبه بالحب العميق لكل ما يحتوي عليه الكون من طبيعة ومخلوقات ... تقول لوحاته هذا كله.

جلس عبد الخالق يتأمل لوحته المحببة "سكون" التى رسمها سمير من وحى نافذة عبد الخالق المطلة على البحر. إذا ظلت مشكلة المال تطارده وتؤرق حياته فما العمل ؟. تعجب كيف عجزت طاقاته العقلية والبدنية عن حل هذه المشكلة الحقيرة وتساءل لماذا خلق أبوه فقيراً يورثه الفقر بعد أن ورثه، وهل سيموت هو الآخر فقيراً مخلفاً لأبنائه - إن جاءوا - نفس الميراث الكريه ؟

شرد عن اللوحة وعاد إليها عشرات المرات دون أن يفتح فمه بكلمة واحدة. حكى لسمير ماحدث له كما لو كان يروي حلماً. عاد مرة أخري إلى شروده. قطع سمير تأمله للوحة قائلاً.

- فيم حيرتك أيها المعذب الرقيق ؟

يعرف عبد الخالق السبب ولا يعرفه. لن يسمح للفقر أن يتسبب فى

تعاسته.

- أبذل كل جهدي لمعرفة السبب.

اختفى وجه سمير وسط سحب البخور الذي نثره بالمدفأة حين عبقت الغرفة برائحة كالمسك وقال ساخراً.

- ألم تصبح بعد من أصحاب الألوف ؟

حتى هذه اللحظة لم يصدق عبد الخالق آرتين. هل يتنازل له حقيقة عن ملكية المصنع؟ .. ولماذا؟

قال كالتائه :

- المأساة أننى أصبحت هكذا فجأة وبلا سبب يعقل.

- احمد الله ولاتقل عن النعمة أنها مأساة.

- إننى أشك فى صدق آرتين .

- وما الذي يدعو رجل فى مثل انضباطه إلى مثل هذه الخدعة السخيفة؟ . دعك من إدمان الشك.

- لنفترض أنه كان صادقاً. ألم يكن من الممكن ألا يفعل ذلك؟

- لقد فعل ياأخى وانتهى الأمر . لماذا تتعب نفسك بالتفكير فيما لاطائل منه ؟

- ماذا كنت أفعل لو لم تأت هذه المصادفة ؟

- السؤال الحقيقى الآن هو هل تستطيع رفضها ؟

......

قرر آرتين العودة فجأة إلى موطنه وإلى الأبد . انهارت معادلته فور أن تلقى برقية مطولة من أحد أقاربه باليونان، يخبره فيها بانهيار ابنه الوحيد "ميناس"، الذي كرس حياته لإسعاده. قالت البرقية أن الولد صاع وضاع وأنه على وشك أن يطرد من الكلية وأن صحته قد استنفدها اللهو واستنزفها الفساد وأوشك المال الزائد أن يأتى على بقيتها.

فزع آرتين القوي. تحول إلى طفل صغير . بكى بحرقة. هانت مصانعه بمصر واليونان، وهانت كل أمواله الكائنة والمنتظرة، وأتعسه ألا يدرك معنى حياته التى عاشها يعمل ليل نهار : يحارب ويخطط وينفذ ويسبق وينجح ويكسب ويكسب ويكسب.

تأمله عبد الخالق بذعر شديد .. "وستقتل من أجل المال" . مامعنى أن تؤرقه مسألة الفقر لدرجة الرعب الشديد فلا يلبث أن يفجأ بحل قدري لها دون مساهمة منه بجهد أو تفكير. انه مازال عبد الخالق سليم كما كان منذ ليلة واحدة. لم يتغير به شئ حتى ينقلب حاله إلى النقيض وهو واقف يتفرج. ما هذا الذي يحدث؟..

كان بإمكان آرتين أن يخفى عنه السر الذي لم يطلع عليه أحد . انه لايتصور أن يقدم آرتين على مثل هذا التصرف عبثاً. ألم يكن بإمكانه أن يبيع المصنع لأحد المنافسين ؟ .. أو أن يغلقه بصفة وقتية فيسافر ليصلح من الأمور ما فسد ثم يعود إلى مصر وقتما يشاء ؟. لابد أن هناك خللاً فى معادلته المقدسة قد وقع ولم يستطع إصلاحه. لقد تجاوز

أحد طرفى المعادلة فى قيمته الطرف الآخر فسحق آرتين معادلته بقدميه وتنازل بصفة رسمية عن مصنعه لعبد الخالق، وإذا بالدنيا تكشف له عن وجه آخر كان يجهله تماماً. لكن أساريره لاتنفرج وحيرته لا تنتهى. يعبث القلق بنفسه وتعيش القراميط فى مياه عذبة وتنبح الكلاب فى أزقة قذرة ويستقر سليم فى ركنه السعيد يقرأ ويدخن ويشرب الشاي فى سعادة ويقوم وينام ولا يفكر فيكتفى عبد الخالق بالنظر إليه والتأمل فى تحركاته الآلية وضحكاته النابعة من القلب، ويقنع سمير بلوحاته الطبيعية وصلواته التعبدية. الله والطبيعة والإنسان وصفاء النفس ورحابة القلب ليحوي الكون بأكمله فى نبضات قلبه وستقتل من أجل المال.ستقتل من أجل المال... وسأله عبد الخالق دون أن يفيق من شروده

- ولم فعلت معى هذا؟

نظر إليه آرتين بإعزاز حقيقى يراه فى عينيه ربما لأول مرة بهذا القدر من الوضوح.

- لأنك جدير به .

الشك فى طبيعة عبد الخالق .. يجري فى دمائه.

- سبب غير مقنع

قال آرتين بلهجة جادة تحمل معنى الرجاء

- هناك سبب آخر . اعفنى من ذكره.

عبد الخالق لايصدقه .. رغم هذا كله لايصدقه.

- أنت لاتخاف شيئاً .. أنسيت معادلتك المقدسة ؟

خيل لعبد الخالق أن آرتين ينكمش إلى نصف حجمه وهو يقول له :

- لا تجعلنى أضعف أمامك .. إنى حريص على مستقبلك

قال عبد الخالق بإصرار يستحث آرتين على المزيد من الإنكماش.

- بل ستكون أكثر قوة لو ذكرت السبب الحقيقى.

صمت آرتين طويلاً. لم يعد من الضروري أن يساوي الطرف الأيسر للمعادلة اثنين. صار يساوي صفراً فى بعض الأحيان ومليوناً فى أحيان أخري . قال آرتين بصدق عجيب.

- لأننى أحببتك ياعبد الخالق.

كيف استطاع آرتين أن يحبه ؟ كيف تمكنت منه تلك العاطفة؟تساءل عبد الخالق. تري متى عرف آرتين الحب ؟.

الحب عبد الخالق رفض لموقف مديحه. استنكار لموقف حسين. تعجب من موقف نعيم. إعجاب بشخص سمير ويقينه المريح. سخرية من معادلة آرتين وسعادة بتحوله المفاجئ عنها. احترام شديد لنفس المعادلة التى يسخر منها. قبول لاستقرار سليم فى ركنه القدري. وفاء بالتزامه تجاه أسرته. إنغماس فى عالم الأدب عالم الإنسان. الحب كان - حتى وقت قريب- رفاهية لايجرؤ على ممارستها ولايحلم بتلك الجرأة، لأنه لايمتلكها أصلاً كما أنه لايمتلك وقتاً كافياً لممارستها. كل وقته مكرس للعمل تسديداً لديونه عند آرتين.

الحب الآن متاح .. لكنه يغيب بعيداً خلف غيوم المجهول ومفاجآت الغيب.، فكيف استطاع آرتين أن يحبه ؟؟؟

......

فى تدرج وئيد - كما لو كان هناك تخطيط محكم الإتقان مجهول الهوية- راحت مشاعر مبهمة تتسلل إلى نفس عبد الخالق حين رأي فى معادلة آرتين عبثاً ثم فى ثرائه المفاجئ عبثا أكثر . تخدر بنعومة هذه المشاعر واستسلم لتسللها فراح يتساءل عن سبب شلل أبيه المفاجئ، ولما لم يجد إجابة فقد ازداد استسلامه لهذه المشاعر. كلما تساءل عن سبب لم يجد إجابة . فكر فى نعيم الذي لولا أن عرفته مديحة لربما استمرت تحبه وتنتظره فهى بالقطع لم تحبه . فكر فى فلسفة حسين من موقفه "اللامتناهى فى النذالة"، ثم فكر طويلاً فى مديحة واستسلم تماماً لسيطرة المشاعر المبهمة دون أن يدري أنه يخط بهذا الاستسلام لحياته خطاً جديداً . قال له سمير .

- ليس فى الأمر شئ من العبث . عملت وناضلت ثم ساعدتك الظروف لا الحظ. لاتستسلم لشكوكك المظلمة.

وراح عبد الخالق يفكر فى حياته الجديدة كيف تكون وقد انقلبت حاله فى لحظة عبث قدرية لا ناقة له فيها ولا جمل، وإنما هى المصادفة التى أوحت إلى ميناس بالفسق والعربدة ثم تركته إلى قريب أبيه فأملت عليه أن يكتب البرقية ثم تركته إلى آرتين حين تسلمها وبكى .

هناك موقفان إزاء هذا العبث يمكن لعبد الخالق أن يختار بينهما في مواجهة حياته الجديدة. فإما أن يستسلم لقدره وينسى ما حفلت به حياته القصيرة الماضية بأسباب التعاسة والخوف من الحاضر والمستقبل فيعتمد على الله ويشق لنفسه طريقاً مزدهراً بالنجاح والسعادة، وإما أن يطيل التفكير في ماضيه كلما أمكنه أن يطيله، ويظل يتأمل في معنى حياة تبدأ وتنتهي بالفقر والعجز، ويحاول أن يتفهم كيف يعقد الصلات والروابط والعلاقات بين ماض كان قد أوشك أن ينسحب على المستقبل لولا مصادفة، وبين مستقبل لابد ليواصل مسيرته أن يستفيد من خبرات الماضي حتى الصميم.

لكن شكوك عبد الخالق لم تقده إلى أحد هذين الموقفين، وإنما توجهت به إلى موقف مخالف حين اختار الصمت والتأمل في حاضره الجديد وماضيه المؤلم ومستقبله السعيد. وضع حياته كلها في سلة واحدة واختار صمتاً صفرياً لايتحرك ولاينطق عن يمين الصفر أو عن يساره . استعذب لذة التأرجح والتذبذب بأفكاره وظنونه حول الصفر محتفظاً بتوازنه العدمي فوق سطح حياته التي شاء أن يقف منها موقف المتفرج.

حتى عندما غاص تحت السطح فإنه ما كان لينحرف عن صفريته في العمق، فكانت أعماقه هي الأخرى صفرية إلى مالا نهاية . ورغم ذلك فقد أتت بنهاية، حين قادته هواجسه إلى مافوق السطح فطار بنفسه بعيداً ورأى الناس والأشياء والمواقف جميعاً "أشياء" صغيرة، كلما ارتفع



صغرت وكلما ابتعد تضاءلت حتى انعدمت رؤية بعضها أو معظمها أمام عينيه الزائغتين .

......

سأل الثعلب العفريت :

- ولماذا انتهى به الحال إلى ذلك ؟

فأجابه :

- الشك وزيادة الوعى .

## - ٩ -

انتبه العمال لأول مرة إلى أنهم يتعاملون مع إنسان جديد. عبد الخالق بك سليم . هكذا أسمونى بتلقائيتهم وتسليمهم لكل كبير يرأسهم أو يحكمهم. العقدة الفرعونية التى لايسلم منها مصري . الفرعون . الباب العالى . الإله . المحافظ . القائد . البك . الباشا. الوالى . تبددت نظرات الذعر التى كانت تتجلى على وجوههم عند رؤيتهم لآرتين صاحب المصنع القديم، ليس عن خوف من شخصه، وإنما الخوف مما يمثله من سلطة هى الفرعون والرزق والباشا والوالى والرئيس وصاحب العمل.

الصاحب الجديد ساكن النظرات لايشع شرراً من عينيه. يجلس إلى مكتبه يقرأ كتباً كثيرة ولا يعطى اهتماماً كبيراً لأوراق العمل . لكن الخبثاء منهم كانوا يلحظون أنه بين الحين والآخر يتابع بنظرات خاطفة بعضاً مما يدور من حوله . كان الموظفون يتعجبون لسلوكى هذا، وأنا واثق أنهم - لفترة طويلة ظلوا يعتقدون أننى رجل أبله، أو رجل مهزوز يفتقر إلى الثقة بنفسه وبملكيته الجديدة التى هبطت عليه من السماء والتى لن يستطيع إدارتها بهذا الأسلوب الغريب . يتبادلون فيما بينهم نظرات هامسة حول تصرفاتى اليومية وسلوكياتى تجاههم . لقد أفهمت كلا منهم أننى أوليه ثقتى كاملة . لامبرر لسوء الظن والتهديد بالعقاب وتوقع الخيانة قبل وقوعها. سأجرب الإمتثال لنصيحة سمير بالتحرر من الشك فى كل شئ . هكذا كنت حقيقة ولم أدع القول عبثاً .. فبموجب هذه الثقة لا ينبغى أن احترس فى تعاملى معهم أو أظن أو أتشكك . سوف أركز ذهنى وحواسى فى التأمل والترقب. المهم أن أعرف كيف أكون مطمئناً أثناء خوض التجربة . سوف أترك لهم الحبل كما يحلو لهم شداً وجذباً فالوريقات المطبوعة ستصلنى فى نهاية الأمر، وسواء أكانت قليلة أو كثيرة فهى كثيرة جداً بالقياس إلى رغباتى المحدودة، ثم اننى فى الحقيقة لست المالك الحقيقى لها، كما أننى زوجت شقيقتى معاً فى زمن قياسى وسوف أبعث بأمى - كرغبتها- إلى الأراضى الحجازية فى كل عام ، وأكثف من اهتمامى المتزايد بمشاركة أبى فى ركنه السعيد .

ماأريده من الحياة أكثر من ذلك لم أعرفه بعد . لم أحدده . لو كانت سعادتى الحقيقة فى المال فأين هى ؟ .. إننى لا أشعر أننى سعيد . منذ أيام قليلة كنت غارقاً فى التعاسة تحت وهم الفقر . من يمكنه أن يصدقنى لو أفضيت له بهذه المشاعر ؟

أستطيع أن أدعى أننى فرحان وقد انتهت مشكلتى مع المال . لكنى أتمنى أن أعلن سعادتى فكيف وبماذا؟ . لكن ألا يجوز أن أكون سعيداً دون أن أدري ؟ .. ماهى السعادة ؟.

مجدي حسنين ينظر إلى نظرات لا تريحنى . المدير المالى لمصنعى الكبير الذي آل إلى فجأة. يبدو فى حالة لاتستقر بين القلق والتحفز. تكاد ملامحه تفضح ما بصدره حين تقول لى :

- لماذا أنت يا عبد الخالق ؟ .. لماذا لم أكن أنا ؟

شاب وسيم تشبه عيناه عينى ثعلب . بيده كل أوراق المال بيعاً وشراء وأجور عمال وموظفين . على وجهه سحابة من الأفكار الغائمة الغامضة. لم أكن أناقشه إلا قليلاً لمجرد أن أتفهم الخطوط العريضة للنظام المالى بالشركة دون الدخول فى التفاصيل .

فى البداية كان مجدي مذهولاً، لكنه ما لبث أن اعتاد طريقتى فى التعامل ولاشك قد أدرك استيعابى لما يقول وما يكتب، إذ ليس بالضرورة أن يتعارض هذا الاستيعاب مع عدم رغبتى فى العمل .

أهلاً بأولى ثمرات الثروة المفاجئة .. سوف يخيل إلى أن الجميع

يحسدونني ويطمعون في مالى . لن أتراجع عن خوض تجربة الثقة . قال أبى سليم الذي يحترم المال ولا يحبه :

- المال السائب يعلم السرقة .

وقال سمير :

- لا تستسلم للموت مبكراً .

......

منذ تسلمت المصنع أصبح جسدي دائم الشعور بالبرودة حتى فى الصيف . اشتريت عباءة سوداء وداومت على ارتدائها فصارت من علامات حضوري المميزة لدي الجميع . تبدو نظراتى للعمال كمن يتسول حباً مفقوداً، ولكنى لست كذلك. ربما كنت ضحية وجهى. تبدو نظرات العمال إلى كما لو كانت علامات استفهام محيرة. أفق لنفسك يابن سليم . لقد صرت غنياً. ماذا يهمك من نظراتك إلى مستخدميك ومن نظراتهم إليك؟ . أنت المالك . أنت المالك .

زارنى جاويش مدعياً أنه جاء يهنئنى بشراء المصنع وهو يعلم أننى قبل ذلك اليوم لم أكن امتلك ثمن شراء حذاء . جلس أمامى يتفرس ملامح وجهى كما لو كان يقرأ عليه كلاماً لست أعرفه . لن أنسى معالم وجه هذا الرجل ما حييت . طلب منى رفع أسعار منتجاتى حتى أتيح له ولسائر التجار فرصة المنافسة ليتحرروا من احتكار مصنعى لتوريد حجر النار وإلا أوشكت مصانعهم على الإفلاس. لقد انصرف عنهم العملاء

تدريجياً حتى بارت تجارتهم . ما ذنبى أن الفارق بين أسعاري وأسعارهم كبير؟ . أغرانى بالزيادة المتوقعة فى الربح بعد رفع السعر، متجاهلاً أن يتبع هذا هبوط فى مبيعاتى لحساب عجزهم عن التوصل إلى سر التركيبة الاقتصادية للحجر . ثقته الشديدة فى قدرته على استغفالى تصيبنى بالغثيان.

لو صنعت مقعدي هذا بيدي لما وقف منى هذا الموقف . يعلم أننى جلست عليه بضربة حظ، ولهذا لا أستحقه ، ولهذا فمن الطبيعى ألا أستطيع الجلوس عليه، بل ولا بد أن أتركه لغيري . نصحنى بتسريح بعض العمال لتوفير المزيد من المال ووعدته بالتفكير فى نصائحه الجليلة خاصة بعد أن قال أنه يحبنى كابن من أبنائه .

فى اليوم التالى أصدرت أوامري إلى مجدي برفع أجور العمال والموظفين بنسبة محددة وتخفيض سعر المنتجات وانصرفت بكامل طاقتى أقرأ الأشعار والقصص واستمع إلى الموسيقا الهادئة بمكتبى .

.......

اجتمع التجار المتنافسون بزعامة جاويش بعد أن تهددت تجارتهم بالإفلاس وقرروا إيفاد جاويش لتهديدي. كانت لعبة مسلية بحق .. امتعنى خوض غمارها أكثر من لعبة جداول السعادة.

.....

عاود الموظفون تبادل النظرات الغامضة حول الرجل ذي العباءة

السوداء، المالك الجديد للمصنع الكبير، ساكن النظرات الذي لايشع الشرر من عينيه . لكن نظراتهم هذه المرة دلت على الحيرة الشديدة أكثر مما دلت على الفرحة بزيادة الأجور . قال مجدي :

- أري أن تخفض نسبة الزيادة قليلاً وإلا اعتاد العمال على طلب المزيد .

صحت فيه دون أن أنظر إلى وجهه .

- افعل ما آمرك به .

كنت أريد أن أختلى لأضحك فى المرآة . لماذا صحت فجأة ولماذا أخذت المسألة بهذه الجدية المتناهية؟ . وإذا كان مصير حياتى قد تبدل وتحدد بمجرد كلمات قليلة نطق بها شخص فما معنى الجدية المتناهية، وهل هناك فى الأصل جدية فى شئ ما؟.. لماذا تخليت عن فكرة انتسابى للجامعة ؟. ألم تتبخر هذه الرغبة إلا بعد توقيعى عقد البيع الصوري بينى وبين آرتين ؟. أكانت الشهادة ضرورة فى زمن الفقر ولم تعد لها قيمة بعد أن أصبح بإمكانى أن اقرأ بحرية ماشئت من آداب وفنون وعلوم ؟ . عموماً فهناك أسئلة كثيرة فى حياتى كل إجاباتها "لست أدري". وفى جميع الأحوال فإن ممتلكاتى من الوريقات المطبوعة أصبحت تزداد يوماً بعد يوم دون أن أبذل أي جهد فى سبيل ذلك، مما أثار دهشتى وتعجبى لما يحدث على هذا الكوكب. ولما كنت أخاف وقوعى أسير لحظة فراغ واحدة فإننى رأيت ألا أكتفى بمتعة القراءة

فقط، وإنما أجرب وسيلة استزادة الوريقات المطبوعة على سبيل التسلية فحسب، حين أشعر بالملل من كثرة القراءة.

تحت تأثير إحدي هذه اللحظات المملة استدعيت "اسماعيل" - مهندس المصنع - وطلبت منه أن يعد لى دراسة متكاملة لمشروع توسع كبير لوحدات المصنع الإنتاجية، على أن يصلنى هذا التقرير بعد أسبوعين . كدت أضحك مرة أخري حين لاحظت أننى أخاطبه بلهجة جادة، خاصة فيما يتعلق بتحديد موعد قاطع وحاسم لتقديم التقرير . والعجيب - وإن كان يبدو طبيعياً - إن المهندس كان يستجيب لنبراتى الجادة بنظرات أكثر جدية، فالمسكين يقدر المسئولية وينعى همها طبقاً لاعتقاده فى جدية طلبى .

ولقد نسيت هذا الأمر تماماً حتى فوجئت به، يوماً يدخل مكتبى قائلاً بأدبه المعهود.

- المشروع جاهز يافندم.

أي مشروع هذا أيها الشاب الطيب ؟ ..

وضع أمامى ملفاً كبيراً. حملقت فى وجهه لفترة حتى تذكرت موضوع التوسع .. "ولماذا أتوسع"؟ على الفور تقطب جبينى وتغيرت ملامح وجهى وقلت بطريقة آمرة تكاد تخلو من الذوق، وبلا أدنى مبرر.

- تفضل .. اجلس لنناقشه معاً.

تلعثم فى بادئ الأمر ثم واصل شرحه بهدوء، وكانت ثقته بما يقول

آخذة في التزايد .

كنت أفكر بعمق فى نظرات مجدي المخيفة لى ، والتى رغم خوفى منها لم تكن تضمر لى العداء . بعد انتهاء اسماعيل من شرحه قلت له بنفس اللهجة الآمرة.

- احفظ هذا الملف لحين طلبه.

دهش المهندس الشاب . نظر إلى وجهى مستفسراً فوجدنى أنظر إليه مستفسراً أنا الآخر، ولكن عن شئ لا أعرفه . أبقى الملف مفتوحاً وسألنى بصوت خفيض خاشع . .

- ألن تدرسه سيادتك ؟

لو سألنى عن حسين لقلت أنه ناكر للجميل لاقلب له . لو سألنى عن مديحة لقلت أنها تزوجت من نعيم.

- نعم ، لن أدرسه.

كان من الطبيعى أن يجتهد اسماعيل - بقدر خبرته المتواضعة فى التعامل مع الآخرين - فى إخفاء معالم الدهشة الشديدة التى استبدت بوجهه، لكنى كنت أدرك تماماً أنه محق فى دهشته . وما كاد يهم بالانصراف حتى قررت تنفيذ المشروع، فاستوقفته قائلاً:

- سلم الملف للاستاذ مجدي ليحسب لنا التكلفة ويعد المشروع للتنفيذ.

اصطدم اسماعيل بأحد المقاعد لدي عودته بعد أن استوقفته فجأة.

كنت أتعجل خروجه بالملف قبل أن أنفجر أمامه فى الضحك منه ومن نفسى.. ولم تمض عدة أشهر حتى كانت أبنية الوحدات الإنتاجية الجديدة تعلو فى السماء.

.......

قال الثعلب للبومة :

- الإجابات هنا قاطعة ولا محل لكلمة "لعل" أو "ربما" أو " أعتقد".

## - ١٠ -

دب الشقاق بين مديحة ونعيم لكثرة تساؤلاته الملحة عن سر ثراء عبد الخالق المفاجئ . أصبح فضوله المتزايد يثير تقززها. حاولت مراراً أن تجعله يكف عن دس أنفه فى شئون غيره ولكنها لم تفلح . اشتبكا فى حوار صاخب . قالت له بعنف .

- لا شأن لنا بأحد .

- لقد كان مفلساً قبل زواجنا وإذا به يصبح من أصحاب الألوف، وقريباً من أصحاب الملايين.

- لا تدع الحقد يعميك . كن فى حالك .

- دائماً تدافعين عنه .

- لا داعى للإلتواء . لقد فضلتك عليه .

- لأننى كنت أفضله مالياً .

آثرت مديحة الصمت، فعاود استفزازها.

- عموماً سوف أقبل عرض سمير .

- سيكون فى تطفلك انتقاصاً من كرامتك.

- لا علاقة بين الكرامة وحب المال . أنا لا أخفى حبى للمال مثلما تخفيه، وأنت تعرفين ذلك.

- الكرامة لا يعدلها شئ ياحضرة الأستاذ.

- فلماذا تنازلت عنها ؟

- .....

- لقد قبلت الزواج منى وأنت تعلمين أن عبد الخالق يحبك .

- ....

- أليس هذا تنازلاً ؟

لم تستطع مديحة أن تجيب عن سؤاله . لو كان بيدها أن تفعل لقالت أنها لم تتنازل عن كرامتها فحسب، وإنما تنازلت عن نفسها لمن لا يستحق، وبلا أي مقابل .

.....

كان عبد الخالق قد روي لسمير كثيراً عن نوبات الملل المتعاقبة التى

تسيطر عليه، فاقترح سمير - على سبيل المداعبة - أن يدرس عبد الخالق لغة أجنبية قد تفيده فى تعامله مع المستوردين والمصدرين الأجانب من جهة ، وفى قراءته الأدبية والفنية من جهة أخري، فاختار عبد الخالق اللغة الانجليزية واختار "نعيم" مدرساً له .

فوجئ سمير بسرعة رد الفعل وسرعة الإختيار، فالأمر كان مجرد حديث لتزجية الوقت، واختياره لنعيم كان مفاجئاً لسمير وله نفسه .. فهو لم يفكر قليلاً أو كثيراً قبل الإختيار، ولم يعرف هل اختاره لأنه لا يعرف بالحى مدرساً غيره أم لأنه نسى أو تناسى أنه غريمه وخاطف حبيبته، أم لأنه يريد أن يتشفى فيه ويشمت فى زوجته. غير أنه لم يجد بداً من إجابة صديقه إلى طلبه بأن يعرض "الصفقة" على نعيم نيابة عنه، وقد تجاوز مقابلها المادي أقصى شطحات أحلام نعيم، عله يخفف بعضاً من غلواء نفسه تجاه عبد الخالق.

....

لم تكن مسألة عبد الخالق هى موضوع الخلاف الوحيد بين مديحة وزوجها، فقد كانت تكره بخله الشديد وتقتيره فى الأخذ بوسائل الحياة الطبيعية الكريمة وحنثه بوعوده الكثيرة لها قبل الزواج، وتنفر من لزوجته الشديدة التى تستشعرها حين يدس أنفه فى حيوات الآخرين بمرارة لا مبرر لها، كما كانت تمقت حيوانيته الفجة فى ممارسة الحب معها وتفيض نفسها تقززاً من رائحة جسده الكريهة.

أبدي نعيم ترحيبه الشديد بالموافقة على عرض سمير، ولم يلبث أن وضع موافقته على الفور موضع التنفيذ.

.....

قال الصرصار للثعلب :

- أنا كمثقف أستطيع أن أدعى أن بعض الناس يحقدون على الآخرين بلا سبب سوي أنهم يحبون الحقد ولا يستطيعون الحياة بغيره، فلو لم يجدوا أحداً يحقدون عليه لحقدوا على أنفسهم.

## - ١١ -

تلقى عبد الخالق خطاباً من حسين يستفسر فيه عن أحوال الأسرة ويخبره أنه قد أفلس تماماً بعد مضاربته بأمواله التى جمعها على مدي ست سنوات فى صفقة خاسرة أتت عليها جميعاً. شعر عبد الخالق بالبرودة تسري فى أوصاله فسارع بارتداء العباءة وتساءل عن الأسباب التى تؤدي بنعيم إلى منافقته ومداهنته بطريقة تدعو إلى الازدراء والاستفزاز فلم يجد سبباً.

- ١٢ -

أوقفتنى إشارة مرور عابرة على ناصية يتقاطع عندها طريقان. التفت لا إرادياً إلى يمينى فلمحتهما يجلسان إلى المقهى الكبير القائم بتلك الناصية . مجدي عبد الرازق حسنين والمعلم جاويش . تملكتنى دهشة شديدة فما الذي جمع الشامى على المغربى ؟. أحكمت وضع العباءة حول جسدي وتنبهت إلى أصوات آلات التنبيه من خلفى تذكرنى بفتح الإشارة.

رأيت فى الضوء الأحمر عين البومة وفى الأصفر عين الثعلب.

- ١٣ -

تضاءلت رغبتى فى مجالسة أبى الذي لم يتغير شئ فيه أو فى ركنه

الصاخب بأوهام السعادة. كثرت ضيفات سمير فى مرسمه من النساء . لم يبق سوي يومان على افتتاح مشروع التوسع بعد أن فوجئت بانتهائه تماماً. انهالت على العروض من مختلف أرجاء البلاد ومن بعض الدول العربية للتعاقد على انتاج مصانعى الجديدة... "مصانعى" !! وتعجبت لأننى لم أشعر بالفخر . اتسعت دائرة معارفى بشكل مثير . أصبحت فى حاجة إلى سكرتير خاص ينظم لى وقتى واتصالاتى، ودون أن أدري وجدت نفسى منهمكاً فى العمل ليل نهار كما كان آرتين من قبلى تماماً .. وشيئاً فشيئاً أصبحت ظاهرة الاهتمام بالأشياء من معالمى الجديدة. تضاءلت أوقات قراءاتى أثناء العمل . ازداد حجم تعاملى مع " مراد عبد الحليم " أحد كبار السماسرة الذين يجلبون لى أكبر الصفقات. أعلنت يوم افتتاح المصانع الجديدة رفع أجور العمال والموظفين للمرة الثانية . رأيت حباً حقيقياً فى عيونهم . أحببت مديحة وهربت منى. مارست بعض العلاقات العملية مع بعض النساء لمجرد التخلص من شحناتى الذكرية المزعجة، وكنت أصاب دائماً بالغثيان فور كل نهاية . ابنة مراد فتاة جميلة.قدمنى إليها ليلة الإفتتاح . ميرفت مراد . تصغرنى بأكثر من عشرة أعوام .

أمضيت أربعين عاماً من عمري فى قلق لا مبرر له . راقبت عينى الثعلب فى وجه مجدي وعينى البومة فى وجه نعيم . مات البربري وما زال أهل الحى يأكلون البلطى والقراميط. اختفت الكلاب من أحلامى

وظهرت الصراصير..

الصراصير تجري حول قدمى أينما ذهبت ...

اشتريت "فيلا" جديدة فى ضاحية متطرفة من ضواحى الاسكندرية . شاركنى سمير بهجة الأيام الأولى فى هذا المكان المريح الذي يجلله الوقار ويحيطه السكون . صرت أتردد على منزل أسرتى كثيراً لزيارة أبى وأمى، لكنى كنت أفضل المبيت وحدي بمنزلى الجديد مع "سيد" خادمى الظريف.

....

كثيراً ما كان يحضر إلىّ "فهمى " - سكرتيري الخاص الجديد - فى الفيلا. يقدم لى أوراق العمل "الهامة" لأنجزها فى هدوء. لاحظت أرقاماً غريبة فى بعض أوراق الإدارة المالية . دخل فهمى ومعه ملفاً. أذنت له بالجلوس وألقيت بالملف بعيداً كما لو كانت تحوي أوراقه دليل ادانتى فى جريمة قتل. وستقتل من أجل المال . ذعر الشاب وتردد فى الجلوس. لمحت فى عينيه نظرة اشفاق حقيقى نحوي. لا تجزع ياعزيزي فأنا أعقل منك مائة مرة على الأقل . اخترته من بين موظفى الإدارة لإحساسى بأنه إنسان صادق دون أن أعرف ما هى المقاييس المحددة التى أمدتنى بهذا الانطباع. شعرت بلذة طاغية وأنا أشعل سيجارتى وأساله :

- كيف حالك يافهمى ؟

- نحمده ياسعادة البك.

- كم راتبك ؟

- أربعون جنيهاً غير الزيادة .

الذي هو شقيقى يمهد الآن للعودة بعد أن أفلس . ضاع منه ملكه الورقى وسيعود باحثاً عن وسيلة جديدة يجمع بها وريقات مطبوعة من جديد . الآن فقط يستفسر عن أحوال أسرته فما معنى الأسرة ؟ .. وأين عباءتى ؟ .. ولماذا تطاردنى الصراصير ؟؟؟

- ألم تتزوج بعد ؟

- خاطب منذ ثلاث سنوات والله.

يا جمالك . أنت الآخر من المفلسين المنتظرين . ستتركك يا مسكين . ستبحث عمن لا يحب الإنتظار. لا مفر من الإعتراف بالحقيقة. القوي يسود والضعيف يخضع وينكسر ويكتئب ثم يموت .

لكنك سعيد الحظ يا ولد . لن يطول انتظارك . بمحض الصدفة فقط لن يطول انتظارك. بدون الحاجة إلى جدية متناهية أو لا متناهية سينقضى أمرك .

- ولماذا ؟ .... ؟

- الشقة يا سعادة البك . حفيت قدماي بحثاً عن شقة تناسب دخلى.

- كم طلبوا منك ؟

- إنها آلاف ياسيدي .. آلاف الجنيهات .

انتفضت واقفاً كما ينتفض من جلس سهواً على جمرة. تذكرت

عباءتى فسارعت بارتدائها. لاحظت أنها مثقوبة من منتصف الخلف تأملت هذه الظاهرة طويلاً . تذكرت الكلاب والقراميط والصراصير وخطاب حسين ولزوجة نعيم وفوضى سمير وضحكة ميرفت الساحرة وعينى مجدي حسنين وإشارة المرور العابرة التى أوقفتنى - بالمصادفة أيضاً - أمام المقهى . رأيت أن أؤجل التفكير فى سبب تواجد هذا الثقب فى منتصف خلف عباءتى ، وسألت فهمى :

- كم ألفاً بالتحديد ؟

- البعض طلب خمسة والبعض سبعة .

- وكيف ستدبر مثل هذا المبلغ ؟

- الله أعلم، ولكن يبدو أننى لن أدبر شيئاً.

- وخطيبتك ؟

- أفكر أن أتركها وأفسخ الخطوبة .

- وهل هذا هو الحل الوحيد ؟

- المسكينة تحبنى . لكنى لست أريد أن أربطها بفقري وإفلاسى وأضيع منها فرصاً أفضل، كما أننى ...

قاطعت ثرثرته العفوية الرائعة قبل أن يصيبنى الملل فأتراجع فجأة عن قراري دون أن أعرف السبب

- كف عن هذه الخطبة العصماء واستمع إلى.

- حاضر يافندم

- أما عن مرتبك فسوف أرفعه، وأما عن خطيبتك فأكتب لنفسك شيكاً بسبعة آلاف جنيه وأخطر الأستاذ مجدي بذلك ولا تنس دعوتى ليلة الزفاف .

رائعة هى لحظات العطاء. كانت سعادتى أضعاف سعادة "فهمى" وهو يتلقى منى مفاجأة عمره غير المنتظرة بفرحة كادت أن تفقده عقله . تعمدت إطالة فترة الصمت بيننا كى أستمتع بالذهول السعيد على وجهه فتزداد سعادتى وأجمع عناصرها ومكوناتها وجزئياتها بشهوة ونهم وسرعة جنونية حتى لاتتبدد منها ذرة واحدة فربما تعرفت عليها وتأكدت أنها السعادة التى أبحث عها .

فى الصباح قدم لى مجدي الشيك لاعتماده وكان وجهه شديد الاصفرار والشحوب. سألته عن بعض التفاصيل المالية الدقيقة والأرقام الغريبة الواردة فى بعض المناقصات ففوجئ وارتبك وتلعثم وابتسمت آذناً بانصرافه. تذكرت كيف هددنى جاويش أمام مجدي بعد أن فشلت محاولاته العديدة معى، والقائمة على الاستخفاف بعقلى دون مبرر، وإنكار ما آل إلى من ملك دونما حق فى إنكار لا يغير من واقع الأمر شيئاً . قال بغل شديد .

- أنا وأنت والزمان طويل يابن سليم الجربان .

حين وقف أمامى مجدي ممسكاً بالشيك فى يده وعلامات الاستفهام الحائرة تغمر وجهه المصفر، فكرت أن أرميه بسؤالى مباشرة .

- ماذا بينك وبين جاويش ؟

لكني تراجعت وابتسمت وسألته عن أمور أخري ثم صرفته .

لم أعرف لماذا تراجعت، لكني أعرف لماذا ابتسمت . عدت إلى عباءتي فتأكد لي من جديد أنها مثقوبة من منتصف الخلف . ثقبوا عباءتي ..

الصراصير تجري حول قدمي أينما أسير ...

فتشت البيت بحثاً عنها . لم أجد صرصوراً واحداً . أمرت "سيد" أن يغمر أرجاء المنزل والحديقة بالمبيد الحشري حتى أتأكد من خلو بيتي من الصراصير .

ثقبوا عباءتي .. ثقبوها من منتصف الخلف .

.....

قال الصرصار :

- لماذا تبكي أيها البغل ؟ .. نحن ملوك هذه الأرض .. لا نهتم بعقل أو عاطفة حيث لا ضرورة للاهتمام بأي شئ .

عاد حسين . نعم . بلا وريقات مطبوعة . نعم . عباءتي مثقوبة . نعم . من منتصف الخلف . نعم . أما الآن فوريقاتي تتكاثر بلذة تفوق لذة الانسان في تكاثره . مجدي حسنين يسرقني . يتحالف مع جاويش في إخفاء بعض المناقصات . لماذا ؟. حسين يطلب العمل بشركتي . يتحدث بكبرياء من يتصدق بحسنة فيتبعها بالمن والأذي . .

إني حزين ....

في ليلة واحدة حطم أبي مكونات ركنه السعيد . كسر الأكواب . ألقى ببراد الشاي . مزق بعض الكتب . ظل يبكي طويلاً .. ومزق سمير معظم لوحاته، عدا لوحة "السكون". إنهال ضرباً على إحدي صديقاته ولم يأبه بصرخاتها المستعطفة. طردها وكان قادراً على أن يضحك بعد ذلك طويلاً . المرأة مخلوق عجيب والرجل مخلوق أعجب . لم يلتصق جسدي بجسد امرأة عن حب حتى هذه اللحظة من عمري . عيب . نعم . حرام . نعم . مرحباً بعودتك أيها الشقيق العزيز. أين العيب وأين الحرام؟. ماذا يفيدني أن أشمت فيك؟. لو كان هذا الشعور يسعدني

لاستحضرته على الفور . ما بال عيناك مختلفتان عن بعضهما ؟ . اليمنى عين بومة ونعيم تكرهه مديحة. اليسري عين ثعلب ولتفعل يا مجدي ما شئت ولن أطردك إلى الشارع.

مازلت أفكر فى صدفة بكاء الأب وضحك الصديق فى ليلة واحدة بعد أن حطم كل منهما أشياء. أفكر أيضاً فى الاتصالات العديدة التى ينبغى أن أنجزها بعد أن ألقى المشروع الجديد بأعبائه المرهقة عل كاهلى..

الوريقات المطبوعة تتكاثر وأفكر ..

والصراصير تطاردنى وأفكر ..

ثقبوا عباءتى وأفكر ..

معادلة آرتين تنفض التراب عن كيانها . تصحو . تستقر . تترك ركنها المهمل وتقف بعرض طريقى . لا بأس الآن من استثمار كثرة التفكير فيما يفيد وينفع . سوف أستبدل بالعباءة درعاً وأضع حسين مع مجدي فى بوتقة واحدة. يجب أن أتأمل هؤلاء الناس. خلاصى فى التأمل وعزائى به . سأبعث الحياة فى كراهيتهما القديمة - غير المبررة - منذ زمالة الدراسة بوضعهما فى مكتب عمل واحد .

منذ سنوات عجز سمير عن إقناع مديحة بانتظاري والتمسك بحبى.. لماذا ضرب سمير صديقته وماذا يريد بى حسين ؟.

دق الباب .مديحه. تعجب سمير من هذه الزيارة المفاجئة . التوتر يشد ملامحه .يعجز عن الانتظام فى صلواته التعبدية . أمامه لوحة سوداء، ماذا تريد هذه السيدة الكريهة؟. نظر إليها باحتقار اجتهد كثيراً أن يخفى معالمه دون جدوي. بالأمس ضرب امرأة ضرباً مبرحاً. داعبته ريح سعادة غامضة وهو يضربها . خيل إليه انها تعانى هى الأخري من ضربات نفس السعادة وهى تصرخ من شدة الألم. جاءت إليه وهى زوجة واحد من أصدقائه الفنانين .

القصة المكررة المملة. انها ليست أي امرأة، فقد كانت من قبل حبيبته. قبل اقتناء المرسم كان يذهب بها إلى بيت صديقه الذي يترك لهما المفتاح وينصرف. لم يحضر سمير حفل زفافهما. لم ينم ليلة كاملة اعتصر فيها ذهنه تفكيراً حتى خيل إليه أن نظام الكون بأسره لا يخضع لمنطق، وأن الوجود الإنسانى مسألة يستحيل تفسيرها. حاول صديقه أن يقبل قدمه طالباً الصفح والغفران لخيانته . "من الخائن"؟ .. بكى الصديق بحرقة لأنه أحبها حباً جارفاً أنساه كل شئ . أين له بعقل يدرك

به معنى لهذا العبث؟ . مازال الصديق يحبها بجنون، وربما يعلم بمجيئها إلى سمير بالمرسم . ازداد احتقاراً له . صب غضبه على جسدها ضرباً موجعاً . والآن ماذا تريد مديحة ؟.. لماذا تجري الخيانة فى عروقكن ؟ .

- ترددت قبل المجئ ولكنى لم أجد عنك بديلاً ألجأ إليه .

- لماذا ؟

- أردت أن أخبرك بما يفعله حسين سليم .

- وما شأنى بحسين ؟

- ألست الصديق الوحيد لأخيه ؟

- ولماذا لم تخبري عبد الخالق ؟

- لا أظنك ترضى لى بسلوك غير كريم كهذا.

تعجب سمير لحديثها عن السلوك الذي طعنت به قلب صديقه وأورثته القلق والتشتت.

- ماهو المطلوب ؟

- قل له أن يبتعد عنى.

نظر سمير إلى الأرض ثم تجاوزها ونزل. رأي جماجم وعظام صدور وأقدام . رأي نهود نساء ومؤخراتهن وقد استحالت جميعاً إلى تراب. تذكر أباه وأمه. مازالا على قيد الحياة. تعجب أن رأي هيكليهما العظميين فى وضع متعامد . صعد . نظر إلى مديحة ولكنه التزم الصمت. قالت دون أن تدري بما به :

- لقد حاول معى قبل زواجى من نعيم وكان يعلم بعلاقتى بأخيه .. واليوم يكرر المحاولة .

وقف سمير فجأة. شل عقله عن التفكير. خيل إليه أن العالم حائط كبير لايراه ويخشى أن يصطدم به. اصطدم بلوحة السكون. وقعت. قال بغضب مكتوم دون أن يعى ما يقول.

- أرجو ألا تشرفينى بمثل هذه الزيارة مرة ثانية.

.......

بومة تضاجع قرداً. عفريت يضاجع نمراً . نمر يضاجع صرصوراً. كلب يضاجع قردة تضاجع كلباً يضاجع حماراً . أطباق تتطاير فى الهواء .. والبغل يبكى .

## - ١٦ -

أنا الذي طاردته الكلاب والصراصير. أنا الذي ثقبوا عباءته من منتصف الخلف. عبد الخالق سليم . أربعون عاماً دون العثور على معنى. أريد الصياح وجدتها وجدتها وجدتها . فجوة رقيقة فى منتصف تفاحة حمراء طازجة سقطت من شجرة المصادفة. تجويف صغير ينشأ فى

قلب خدها حين تضحك. خروج حرف الحاء من حنجرتها الصغيرة. الفجوة والحرف قد يعينانى على العثور على معنى .. ميرفت مراد عبد الحليم.

قال سمير أنه لا يحب حسين . قلت له أننى لست أكرهه . فجأة أعلن أبى سليم تمرده على المرض والركن . طلب العودة إلى المستشفى. حاول الذهاب إلى دورة المياه مستنداً إلى عكازه رافضاً معونة أمى فسقط .

بذل جهداً جباراً حتى يقوم من سقطته بمفرده. ثورة أبى على قدره أقوي من ثورة سمير على واقعه . سلوك أبى هزنى من الأعماق . صار يجلس فى أي مكان بالمنزل إلا ركنه الأسبق. بحث عن معنى. وجده. قرر تجسيده . تشبث به. أعلن خطواته التنفيذية . أقام بالمستشفى .. من العجيب أن حالته آخذة فى التحسن . أفهم من هذا أن أبى لم يكن سعيداً فى ركنه كما توهمت، وإلا تشبث به ورفض عنه البديل. تحيرنى مقاييس السعادة ولكننى لا أعود إلى جداولها المرهقة .

جاءنى سمير فى منتصف الليل .

- هل تمزح ياعبد الخالق ؟

- أتمنى أن أحظى بهذه الرفاهية .

- إذن فما تقوله جاد .

- نعم سأتزوجها .

- قلت لى أنها تصغرك باثنى عشر عاماً.

- نعم .

- ألا تري أنه فارق كبير ؟

- لا يهم.

- أنت لم تعرف شيئاً عن شخصيتها أو ميولها أو طريقة تفكيرها.

- لا يهم.

- فما هو المهم إذن ؟

- لدي أسبابى الخاصة

- هل أصبح بيننا مايخفى ؟

- لن يحدث هذا يوماً.

- قل لى إذن ماهى أسبابك الخاصة.

- إلا هذه

- قد تندم يوماً على اندفاع لا يليق بسنك.

- لا يهم

....

تزوجت من ميرفت . كلما اقترب صرصور من الدرع انزلق عليه . أما الكلاب فقد اكتفت بمواصلة النباح . رقص أبى ليلة الزفاف بعكازه وساقه المريضة. غسلت رقصته قلبى ولمحت لنفسى طريق النجاة. كانت فرحته مهرجان صدق. سيعود بعد انتهاء الحفل إلى مستشفاه . لست

استبعد أن يفكر فى العودة إلى عمله أو أن يبحث عن عمل آخر بعد أن يتماثل للشفاء. أما أنا فقد رأيت فى التجويف والخاء ملاذاً من ملاذ التأمل الذي يقود إلى التفكير الذي لا يقود إلى شئ، وقال سمير :

- رأيى ألا يعمل حسين عندك.

أعرف أننى ثقيل الظل، ولكن هذا لايمنع أن أمزح ولو من باب المحاولة.

- أتحرضنى على أخى ؟

- بل أحميه منك وأحميك من نفسك.

- كيف ؟

- أنت من النوع الذي قد يقتل فجأة.

- منذ متى ظهرت علىّ بوادر الإجرام أيها المغفل ؟

- مثلك لا يقتل لأنه مجرم بل لأنه شديد الحساسية.

- وهل يثير عمل حسين بمصنعى كل هذه الظنون لديك ؟

- أفضل أن تقدم له العون دون أن تقحمه فى شئون أعمالك.

- هو الذي يرغب فى العمل، ومن الصعب أن أرفض رغبته دون أن أبرر له رفضى .

لاحظت أنه يتحري الدقة والحذر فى اختيار ألفاظه، ويدور حول فكرة يخشى مصارحتى بها.

قال محذراً :

- أعتقد أنه سوف يسبب لك كثيراً من المشاكل.

ضغطت عليه فأنا أعرفه حين يخفى سراً. ولأنى أحبه فلست أحترس معه من شئ. لم أخف عنه إلا سببى زواجى من ميرفت، إذ رأيت فيهما أمراً شديد الخصوصية. صرح لى بزيارات مديحة المتعددة له بالرغم من طردها أول مرة. أما شكواها من حسين فغير قابلة للتصديق بالرغم من رؤيتى للون نفسيته الشديدة الدكنة. وأما عن شكواها من نعيم فلماذا تبثها سمير ؟ لكى ينقلها لى؟ وماذا بعد؟ . أتريد السيدة الوقور أن تحيطنى علماً بتعاستها؟ وما شأنى؟ . أم تريد أن تنتقم منى ومن نعيم ومن الحظ بأن ترتمى فى أحضان رجل ثالث ؟. سمير سيرفض بلاشك، وستكون علقة ساخنة من نصيبها كما حدث مع الأخري. أستغفر الله. كيف أظن مثل هذا الظن بمديحة ؟. عفواً ياسيدتى . عزائى فى سوء ظنى أن هناك بالضرورة مخلوقاً آخر يتأملنى كما أتأمل سائر المخلوقات، وإن لم يكن هناك من يتأملنى فلا بد أنه الخالق .. صاحب الوريقات المطبوعة الحقيقى .. ومن حقه أن يتأملنى ليعرف ماذا فعلت بوريقاته التى يملكها.

أنا أعترف باستحالة أن أمتلك كل شئ خلال سنوات حياة مجهولة العدد. الملكية كم وكيف. شئ مثير للضحك أن أتصور ملكيتى لجداول السعادة بأكملها وقدرتى على أن أنهل من منابعها بملكياتى المتنوعة المتعددة حين أشاء وكيف أشاء، فمن المؤكد أن هذا التصور سوف

يقودنى إلى يوم اكتشف فيه أننى أفتقد شيئاً يدعونى إلى الحركة للبحث عنه فأتجمد ثم أموت . والمأساة أننى أشعر دائماً بالبرودة تسري فى أطرافى . أيام العباءة كان هذا هو حالى وكذلك أيام الدرع. فالتجمد قادم لا محالة رغم أنى لست أمتلك كل هذه الممتلكات من بنود الجداول.

قبل أن يغدق على المالك من وريقاته بسخاء وبعد أن فعل - حسب مشيئته المسبقة - لم أشعر بشهوة الإمتلاك ولابسُعار الإنفاق. بالرغم من هذا وجدت نفسى أسلك سلوك آرتين محققاً طرفى معادلته السحرية بنجاح دون أن أعبأ بشئ على الإطلاق. إنها لحظة مقتنصة أتابع فيها تحولاتى الغريبة التى رأيت أن أسجلها من باب التأمل. لكن، ما قول المخلوقات الأخري فى ذلك؟ . ما رأي القراميط والكلاب والصراصير؟ . ألسنا كلنا خليقة واحدة من صنع خالق واحد ؟. ألسنا جميعاً إخوة فى عالم تطور الكائنات وتنوعها؟. لفظت عباءتى المثقوبة وتدرعت بدرعى ولذت بعالم التأمل العميق .

.....

صاح الجميع بصوت واحد .

- لا نقبل أن يقودنا قرد.

قال الثعلب بزهو شديد.

- إذن فاهتفوا معى "يسقط القرد".

ردد الجميع الهتاف من خلفه.

- يسقط القرد . يسقط القرد . يسقط القرد .

## - ١٧ -

اقتحم جاويش مكتب مجدي . اختلفا حول اقتسام غنيمة دبراها من خلف عبد الخالق . توسل إليه مجدي أن يخفت من صوته . دفعه الذعر إلى باب المكتب فأسرع بإغلاقه وقال لجاويش بذلة :

- نتفاهم فى مكان آخر .

انتهز جاويش الفرصة فرفع من حدة صوته . يريد أن يسمعه الجميع.

- لن أخرج قبل الحصول على حقى . أنا لا أؤكل بهذه السهولة.

تزايدت سرعة ضربات قلب مجدي. صوته لم يختلف كثيراً عن فحيح الأفاعى وهو يؤكد لجاويش قوله

- أقسم أننى أخفيت المناقصة لأجلك.

صغير هو مجدي إلى عملقة جاويش فى النصب والالتواء

- أنت تتآمر مع غيري من التجار وتلعب على كل الحبال.

سواء أكان مجدي صادقاً أم كاذباً فقد انهار أمام اكتساح شريكه المخضرم. قال وهو على وشك البكاء

- لقد أقسمت لك أنني ...

لم يكن جاويش على استعداد للاستماع إلى كلمات . الفلوس هى الهدف ، ولا شئ غيرها .

- قسمك غير معتمد عندي فنحن من طينة واحدة . هات نصيبى الآن.

- كيف أثبت لك أنني لم أربح مليماً من هذه العملية ؟

هب جاويش واقفاً فى حزم شديد وإن كان مصطنعاً.

- أنا الذي سأثبت كل شئ . سأفضحك عند عبد الخالق.

بقرون استشعار خفية اقتحم حسين المكتب فى تلك اللحظة. نظر إلى مجدي بعين البومة وإلى جاويش بعين الثعلب، وارتسمت على فمه ابتسامة شديدة الاصفرار، تسببت فى تساقط عرق غزير على ظهر مجدي .

اصطحب حسين جاويش إلى غرفة أخري، وفى تودد مقزز طلب له قهوة. تهالك مجدي على مقعده، وتمنى لو انشقت الأرض وابتلعت " حسين ".

## - ١٨ -

أذهب إلى المدرسة بثياب مهترئة وحذاء مثقوب. مع هذا فأبى يعمل ليل نهار ويقول يا كريم . أحياناً يقول يا رازق. دائماً يصحو قبل الفجر . يتوضأ بماء طوبة ويصلى ويدعو. أتعجب من صمته عند الفجر. تبدو على وجهه علامات لا أفهمها تؤكد لى أننى مازلت صغيراً فى الثامنة.

يدربنى على الاستيقاظ المبكر. يجبرنى على تعلم الصلاة. أقاوم . أتشبث بلذة الفراش الدافئ . ينهرنى . يحذرنى . وأسأله يوماً.

- ما فائدة الصلاة ؟

- أن تتقرب إلى الله.

- لماذا ؟

- لكى يحبك ، ثم تدعوه فيستجيب لك .

- وهل يحبك الله يأبى ؟

- لست أعرف تماماً .

- أبعد كل هذه السنوات من الصلاة ولست تعرف ؟

يبدو وأنه كان مرتبكاً حين اضطر إلى التراجع قائلاً بسرعة.

- أعرف يابنى .. أعرف .. أنه يحبنى .

وقع سليم فى مصيدتى البريئة .

- ألم تطلب منه مراراً أن يوسع رزقك كما أسمعك كل صلاة ؟

- دائماً أسأله ذلك .

- لكنك تعمل ليل نهار وتقول أمى أننا فقراء وعلينا ديون فأين هذا الرزق ؟

- إنى أحمده على الصحة والستر فهذه نعم أهم من المال .

- أنا لا تهمنى كل هذه الأشياء. سأطلب منه اليوم حذاء جديداً وإذا لم يستجب لدعائى فلن أصلى له مرة أخري .

لست أدري ماذا فعل المسكين فى ذلك اليوم من أجل شراء حذاء جديد. فى المساء قدمه لى دون أن يتفوه بكلمة. اكتفى بنظرات معبرة من عينيه، تقول لطفله الساذج :

- أرأيت أن الله محب كريم يستجيب لدعاء المتقربين إليه ؟

وقد نجح فى تحقيق هدفه، لأنى صليت فى ذلك اليوم بحماس وأخذت أشكر الله كثيراً ولم يخطر ببالى أن أشكر أبى .

.....

أنفقت بغير حساب كي يستعيد صحته. قلت له فى المستشفى وأنا أرقبه يجري تدريباته الرياضية بحماس

- هل تذكر الحذاء الجديد ؟

- أي حذاء ؟

ذكرته بالواقعة فضحك كثيراً ثم قال :

- لكنك لم تعد تصلى لمن أكرمك أيها الوغد الناكر للنعمة.

- كيف عرفت ؟

- من عينيك .

- أقسم أننى أصلى، ولكن ...

قاطعنى بضحكة شاب فى الثلاثين .

- كثير من اللصوص والأفاقين والقتلة والمنافقين يصلون ولكن ...

كيف أصلى كما يريد سليم وكما أريد أنا؟. كيف أستغرق فى تلك الصلة الشفيفة المقدسة ؟ . اننى أرغب فى الاستغراق حتى أستريح. وسوف أحاول وأحاول وأحاول . قيل لى أن صحته لا يمكن أن تتقدم بأكثر مما توصلوا إليه من تحسن ملموس. يستطيع الآن أن يسير مستنداً إلى عصاه، وشيئاً فشيئاً سوف يتحسن أكثر . يساورنى ظن قوي فى أنه لم يعد إلى الإقبال على حياته إلا بعد أن أثريت.

تحول حبه لركنه السعيد إلى كراهية أقوي من كراهية الموت فأصبح لسعادته معنى آخر.

تمنيت أن أعطى له ساقى وأراه يمشى صحيحاً. أن يصنعوا له أجنحة يطير بها إلى عالمه الذي يحبه. واصلت لقاءاتى بكبار الأطباء. نصحونى بإرساله إلى اليونان لدي طبيب ألمانى مختص بعلاج مثل هذه الحالة.

رفض أن أصاحبه فى سفره. أبرقت إلى آرتين كى ينتظره بالمطار. احتضننى قبل سفره وباسنى وكان فرحاً سعيداً منتشياً بأمله.

بكيت بعد إقلاع الطائرة وتمنيت أن أراه مرة ثانية. خفق قلبى فسعدت بزوال تبلدي وجمودي ونظرتى الساكنة المتحجرة إلى كل شئ . كنت أوقن أن هذا الزوال لحظى، وأنه وليد انفعال يصعب مقاومته، فتاريخى مع الرجل طويل عريض عميق مشحون بالذكري والتجربة ومرارة الانتظار الطويل. أما تاريخى مع أمى فتاريخ مسطح . سيدة طيبة قانعة راضية ساكنة مستسلمة لا إرادة لها إلا فى عبادة الرب وطاعة الزوج والتفانى فى خدمة الأبناء. تجرأت فى سنواتها الأخيرة أن تتمنى شيئاً ثم تجاسرت وطلبته. أن أنجب لها طفلاً .. وكانت ضحكاتى باكية فلم يفصح وجهى عن إجابة تفهمها . إنى أتعجب من تلك السكينة الواثقة المتربعة على وجه هذه السيدة . أحياناً أشعر تجاه طمأنينتها المستقرة بالحسد القوي، فما الذي شكلنى على هذه الصورة الغامضة المشوشة وأنا ابنها وابن سليم ؟

.....

قال الثعلب :

- شكراً أيها الصرصار الفيلسوف . عد إلى بالوعتك وانتظر.

زوجتى ميرفت . من المؤكد أننى لست أحبك بالرغم من الفجوة والحاء . وإذا كان زواجى منك سيدفعنى إلى معاودة التفكير فى مسألة جديدة تضاف إلى مسائلى المستعصية على الحل فاللعنة على الزواج . مرحباً بتلك المشاعر المبهمة التى كادت تهرب منى بعد تأرجح معادلة آرتين بين الظهور فى حياتى والاختفاء منها، وبعد ثرائى المفاجئ وانهماكى فى الاستزادة منه دون رغبة حقيقية صادقة فى ذلك، وبعد عودة حسين وتآمر مجدي وجاويش وزيارات مديحة لصديقى "الحبيب" سمير .

حسن .. ماذا أفعل بك الآن يا زوجتى العزيزة؟. أعرف أنه لا ذنب يقع عليك ولا لوم، فإنما حظك هو الذي أوقعك على تعس مثلى . فلأشتهيك كلحم حوائى ان كان للشهوة معنى يريحنى من التفكير فى أي معنى .

الحق يقال أنك صاحبة جسد فذ أتفنن فى التعامل معه فأنسى .. من أين أتيت يا صغيرة بكل هذه السبل المتقنة لإثارتى وإشباع رغباتى؟ .

عجيبة . لكأنك لم تخلقى إلا لتأدية هذا العمل. أو ربما تنامى لدي هذا الشعور لطول انتظاري وحرمانى . هأنا أتعامل مع مصدر لذة جديد يقتتل من أجله الآخرون. لو حاولت تطبيق منهج المال وصاحب المال على هذه اللذة الجديدة فى حياتى فلن أفلح. الجسد شئ والوريقات المطبوعة شئ آخر . لكن عنصر الزمن يذهب بالجسد كما يذهب بالوريقات المطبوعة. الكل إلى زوال مؤكد . بعد عدة سنوات تصيرين إلى سيدة شمطاء متهدلة الثديين، ويصير عضو رجولتى إلى قطعة من الجلد الميت.. حسناً .. مادمت أزهد فى وريقات لست مالكها بينما أهتم باستزادتها فى آن واحد، فلأزهدن فى جسد فذ بأن أغوص فى التلذذ به وأنعم بارتشاف رحيقه والاستمتاع بثورته قبل أن ينجح الزمن فى إخمادها.

أنا أعرف أن فى هذه اللحظة التى أفكر فيها يتصارع الملايين من سكان الكوكب على الوريقات والأجساد. الآن يقتل أحدهم من أجل المال وستقتل من أجل المال .الآن يقتل أحدهم من أجل لحظات عري على فراش . أري ملايين المخلوقات وبلايينها على هذا الكوكب. المشهد فوقه واحد . شئ فوق شئ، والشيئان فوق شئ. أتصور أن تظهر قوة شاذة خارقة تجمع كل هذه المخلوقات من أرجاء القارات الست وتصفها فى صف واحد، ثم تعطى إشارة البدء، فيبدأ المساكين العمل على الفور كما لو كانوا مسخرين لتأديته، وسوف يكون منظرهم بائساً تعساً مثيراً للشفقة

والسخرية، أو سيكون منظرهم كالقرود فى غابة .. وسوف يكون فراشى واحداً ضمن البلايين وسأكون فى نظر تلك القوة واحداً من المسخرين .. وهذا مالا أرتضيه أبداً، ففى نفسى تكمن قوة أعتى من تلك القوة الشاذة الخارقة وتستبد بها.

كان من الجائز ألا أفكر فى هذه "الأشياء" بهذه الكيفية لو كنت أحب ميرفت كما أحببت مديحة. إنهم يسمون هذه العملية الغريبة فى بعض بقاع الكوكب البعيدة عنا بـ "ممارسة الحب ". ربما كان التحام الجسدين فى أعنف ثورة هو قمة التعبير عن الحب الذي لم أذقه، وانه غالباً لكذلك. لكنى لست صاحب تجربة حتى أجزم بشئ ، أو ربما أرادوا تهذيب لفظة الجنس أو تجميلها فأسموها الحب. أو ربما كان الحب هو الجنس والجنس هو الحب . لكنه لا مفر فى النهاية من الاعتراف بأننى إنسان يعانى من نقص فى نموه العاطفى، وان كنت أحمل جسداً كجسد البغل.

- ٢٠ -

أغمض حسين عين البومة وذهب إلى عبد الخالق بعين الثعلب. خيل إليه أنه ضرب رقماً قياسياً فى قصر الوقت اللازم للتخلص من مجدي

حتى ينفرد بالغنيمة التى كان يبدو للجميع أنها تفتقد إلى صاحب . تفنن فى حكى قصة مجدي مع جاويش مضيفاً إليها ما أضاف، وروي كيف فاجأهما وكيف أخبره جاويش بكل تفاصيل الخيانة. قال له عبد الخالق بهدوء شديد.

- إنى على علم بكل ما يدور من حولى .

أغمض حسين عين الثعلب وفتح عين البومة فذابت الفوارق بين الذئب القطبى وذئب الصحراء

- وماذا تنتظر ؟

بابتسامة هادئة وصوت خفيض أجاب عبد الخالق .

- أنا أحب الإنتظار .. هواية .

تجاهل حسين تعليق أخيه وخاطبه دون أن يدري بلهجة الوصى .

- يجب أن تطرده فوراً .

تعجب عبد الخالق من استخفاف الجميع بعقله وعجز عن معرفة السبب. قال بابتسامة اليائس.

- بل يجب ألا تنصحنى بشئ .

فتح حسين عينى الثعلب والبومة معاً ثم قال بانهزام واضح .

- للمعلم جاويش بعض الطلبات.

غريب على عبد الخالق أن يتوجه جاويش بطلباته إلى حسين وليس إليه مباشرة . أخفى مشاعره وقال :

- ماهى ؟

- يريد شراء بعض الخامات منا.

- ولماذا لايشتريها من السوق ؟

قال حسين بغضب مكتوم لا يملك التنفيس عنه.

- أنت تعلم السبب.

كان جاويش قد تآمر للمرة الثانية مع بقية التجار على سحب كل الخامات - اللازمة لتصنيع الحجر - من السوق، بحيث تتوقف مصانع عبد الخالق زمناً يتيح لهم أن يستعيدوا أنفاسهم ويربحون مثلما يربح . لكنه علم بالمؤامرة من "فهمى" الذي اكتشف مخططهم بطريق "الصدفة" فسارع بإبلاغ عبد الخالق الذي سبقهم وسحب الخامات وكدسها بمخازنه.

.. تاريخه مع آرتين يعيد نفسه ..

- كم طنًا يطلب ؟

- خمسة أطنان من كل صنف.

- اتصل به واطلبه لمقابلتى .

- وموضوع مجدي ؟

- لا شأن لأحد بهذا الموضوع سواى.

....

بعد انتظار طويل بمكتب فهمى، سمح لجاويش بمقابلة عبد الخالق بك سليم صاحب مصانع الرأس السوداء لحجر النار. كان عبد الخالق يكتم

فى صدره ضحكة ساخرة كلما ناداه أحد بهذا اللقب الذي فقد معناه بعد أن صار أثراً من مخلفات الماضى وأصبح مرتبطاً باسم أي رئيس حتى لو كان رئيساً لمجموعة من الكناسين. توسل جاويش ، واستذل بمزيج داخلى من رضائه وسخطه. الرضا لأن الإنتهازية فى طبعه بحيث لايضيره أن يتلون بغية تحقيق هدفه، والسخط لأنه كان يلعن الأيام التى أتت بهذا الإنقلاب فى طبيعة الأمور وأدت إلى أن يصبح عبد الخالق سيد الموقف بلا جدال .

- أتعترف بأنك تآمرت مع التجار على سحب الخامات ؟

- نعم

- وأين اختفت فجأة كل هذه الخامات من السوق ؟

ابتسم جاويش ونفاقه يفضحه .

- حلال عليك ياباشا . أخبار السوق لا تخفى على أحد.

- من هم التجار الذين رفضوا التعاون معك ؟

- كلهم تضامنوا معى . قل لى من هو المجنون الذي يرفض المكسب.

- ولكنك تأتى الآن باحثاً عن منفعتك فقط.

- وما المانع ؟

- الخيانة

- هكذا حال الدنيا.

- بهذه البساطة ؟

- أنا أطلب الشراء .. هل تبيع أم لا ؟
- سأعطيك طناً فقط من كل صنف.
- ولكن هذا لا يكفى انتاج اسبوع واحد.
- وبسعر أعلى من السوق.
- حرام عليك ياأخى.
- هذه شروطى ولك أن تقبل أو ترفض.

انصرف جاويش ثائراً مهدداً متوعداً للمرة الثانية . صدقت نبوءة عبد الخالق حين تعاقب سائر التجار فى الحضور طالبين شراء الخامات منه بالسعر الذي حدده لهم عقوبة على تحالفهم مع خصمه غير الشريف .. وفى تلافيف الزمن الغابر فى قلب الصمت فى قديم الأزل قالت الشجرة للسمكة ياأختى، أما الشمس فقد صبغت أبناء حام بن سام بلون أسود من ظلام ليل عبد الخالق بن سليم .

## - ٢١ -

بالرغم من الكراهية فقد انتفخت بطن مديحة وكفت عن زيارة سمير ولم يكف حسين عن مطاردتها. تفاقمت حيرة عبد الخالق حول شرعية

العلاقة بين الحب والجنس، فها هى علاقة شرعية لا تعرف الحب وقد أسفرت عن انتفاخ يؤكد وقوع جريمة التلبس بالجنس بما لا يدع للظن مجالاً.

هاجمته الوساوس فعاد إلى جداول السعادة رغم قراره بالإقلاع عن الرجوع إليها، وأدرك فى النهاية أنه يفتقر إلى يقين . أما سمير فلم يجد بداً من مواجهة حسين .

حسين - اسمح لى . أنا لا أفهم معنى تدخلك فى هذه الأمور العائلية.

سمير - لكن لا بد أنك تفهم أننى فى مقام أخيك الكبير

حسين - لست أنكر هذا .

سمير - فهل تنكر حرصى على علاقتك بأخيك ؟

حسين - لست أظن أن حرصك على هذه العلاقة يفوق حرصى عليها.

سمير - بل انى واثق من ذلك .

حسين - فلماذا صدقتها على الفور ولم تصدقنى ؟

سمير - بيدك أن تنكر ما ادعته عليك .

حسين - كل ماقالته كذب وافتراء. إنها تحوم حول عبد الخالق بأكذوبة تتسلل من خلالها إليه بعد أن ندمت على حرمانها من ثرائه.

كان حسين منفعلاً وقد بدا الصدق الشديد فى التماع عينيه، لكن

سمير لم يصدقه وصدق مديحة، وعلى أي الأحوال فلم تسفر محاولته عن شئ إيجابى، لأنه كان فى قرارة نفسه متقززاً من الطرفين.

......

مديحة - لآخر مرة أحذرك. سوف أخبر عبد الخالق.

حسين - بماذا تخبرينه ؟

مديحة - بمطارداتك الوضيعة لى .

حسين - لن تجرئى ، ولن أتركك لأننى أحبك .

مديحة - أكاد أشك فى أنك أخوه.

حسين - هذا لا يهمنى فى شئ.

مديحة - حقير .. ألا تعلم أننى متزوجة ؟

حسين - ولهذا تترددين على شاب أعزب بمنزله .. ونعم الأخلاق ياحبيبة أخى الحبيب.

صفعته مديحة على وجهه . بطشت شهوة الانتقام عنده بشهوة الجسد، فلم يكن يعرف شيئاً اسمه الحب .

......

سأل الثعلب القرد

- بلغنا أنك تعاشر قردة كثيرات غير قردتك .. هل تنكر هذا ؟

فأجابه القرد :

- هذه حياتى الخاصة ولا شأن لأحد غيري بها .

أنا حديث العهد بتجمعات الأثرياء التى يسمونها بالمجتمعات الراقية، فتجمعات صفوة العلماء والأدباء والمفكرين لا يعترف أحد برقيها مادامت تجمعات مفلسة. الوريقات المطبوعة أصبحت عند الخلق دعامة الرقى، ويبدو أن الأمر كذلك بالفعل، فما من حضارة قامت على فقر. أنا الأعمى الوحيد فى هذا العالم الذي أبصر بالمصادفة. نسيت ولم أنس فى آن واحد أن هناك آدميين يبيتون فى خيام مهترئة يحلمون بوجبة ساخنة من القراميط، وأن أبى كان يعمل طول اليوم ولايستطيع أن يشتري لى حذاء جديداً. انقلبت الصراصير على ظهورها فلم تعد تستطيع الحركة.

بمحض "الصدفة" أصبحت ثريا فرأيت مجتمعاً جديداً لم يكن خيالى يجرؤ على اقتحامه. هناك عميان كثيرون لا تمتد أبصارهم أو بصائرهم خارج دائرة مجتمعاتهم المعدمة فلا يتصورون أنه على نفس الأرض التى يعيشون عليها وفى نفس بلادهم يعيش أناس من طينة أخري هى نفس طينتهم ويتحدثون بلغة أخري هى نفس لغتهم . وستقتل من أجل المال.

بعد طول حرمان تولدت من المتعة الجديدة - التى تعلمتها بين يدي

ميرفت - متعة أخري أكثر إثارة. إذ تفجرت فى نفسى أحاسيس جديدة بالرغبة فى الإنطلاق إلى أقصى نهايات الحدود . عرفت أن هناك فنادق من الدرجة الأولى فى نفس المدينة التى عشت بها عمري. أبوابها معدنية لامعة يقف عليها خدم يجيدون الانحناء. فجرت جزءاً كبيراً من طاقاتى المنضغطة على أسرة هذه الفنادق بصحبة ميرفت ذات التخصص الدقيق فى إشعال فتيل المفجر، وإشاعة ما أسموه بالذعر الجنسى فى كل خلية من خلايا جسدي .

عرفت أن هناك منتديات للرقص والشراب على الطراز الأوروبى ان لم تفقه فتنة وجمالاً. لم يكن يخطر ببالى وأنا أرتاد معها هذه المنتديات أننى كنت فقيراً من قبل. لم أشعر بلذة الانتقال المفاجئ من حال إلى حال معاكس تماماً، وإنما كانت اللذة فى ممارسة تفجيراتى الداخلية والخارجية التى جعلت وزنى خفيفاً إلى حد الرغبة فى الطيران. ولم يكن غريباً شعوري بأننى طرت فى بعض الأيام وحلقت بعيداً فوق البشر وسائر المخلوقات من قراميط وكلاب وصراصير.

اتفتحت شهيتى للطعام بجنون كما لو كانت معدتى مخدرة، وبمرور الزمن تركزت متعة تفجيراتى الذاتية فى نصفى الأسفل .. ومرة أخري وجدت نفسى أفكر فى مسألة جديدة بعد أن ارتحت إلى عدم التفكير. كانت المسألة هى مكونات هذا النصف بدءاً بالمعدة وانتهاء بعضو الإنجاب.

ولما كان التفكير فى الأشياء لا يبدأ من فراغ فإننى عدت بذاكرتى إلى العالم اليهودي الذي فسر تطور التاريخ الإنسانى كله بالمعدة فابتكر للبشرية مذهباً بهلوانيا مازالوا يثرثرون حوله حتى الآن .. ثم إلى اليهودي الآخر الذي فسر السلوك الإنسانى كله بعضو الإنجاب فى معرض تفسيراته الشهيرة لعالم النوم والأحلام. ولما كان التفكير فى شئ يقود دائماً إلى التفكير فى شئ آخر، فإننى توقفت فجأة عند كلمة الإنجاب .. طال توقفى وفكرت طويلاً .

مرة قالت لى مرڤت :

- أشعر أنك لا تبادلنى الحب مع أنى أحبك كثيراً .

- لماذا ؟

- لست أعرف .

- ماهى أدلتك الملموسة على صدق شعورك ؟

- ليست أدلة الحب جميعها ملموسة.

- أقصد لماذا تحبيننى ؟

قالت ميرڤت بتلقائية طفلة .

- لأنك رجل قوي جداً.

فتذكرت العالمين اليهوديين مرة أخري ولكن بقرف شديد، وكان لابد أن أضيف إلى جداول السعادة عنصراً جديداً مهما كلفنى ذلك من إعادة حساباتى المنوية فى فراغ الأرحام. أما حساباتى الأخري مع مجدي

وحسين فسوف أؤجلها طويلاً.

- فقط ؟؟

- ولأنك طيب القلب .. متسامح إلى أبعد الحدود .

غريزة المرأة نادراً ما تخيب، لأنى أحسب نفسى فى كثير من الأحيان رجلاً طيب القلب بحق، ألتمس المعاذير للجميع. ترفضنى الحبيبة فأبحث لها عن مبرر. تنتابنى الوساوس تجاه الأخ والصديق فأصف نفسى بالتشكك والإفتقار إلى اليقين. يتآمر ضدي المنافسون فلاأقطع عليهم الطريق تماماً وإنما أتركهم يعيشون مثلما أعيش .. وهاهى زوجتى تحبنى لأننى متسامح طيب القلب .. رغم أننى كثيراً ما أشك فى ذلك .

- أليس لديك سبب آخر ؟

- وربما لأنك تحب أن تفكر كثيراً وتعشق الصمت والتأمل .

أما عن التفكير فهو مأساتى، ولن أكف عن البحث عن معنى .. ومادمت لم أصل بعد إلى نتيجة عن علاقة الجنس الحقيقية بالحب، وعن علاقة الحب الحقيقية بالإنجاب فإنه لايحق لى أن أتمنى إنجاب طفل أو طفلة من ميرفت .

لكن لماذا لا أتمنى لنفسى طفلاً بغض النظر عن أداة إنجابه؟ .. وما دمت متزوجاً من هذه السيدة وما دامت هذه السيدة هى زوجتى، فلتكن هى أداة الإنجاب المتاحة. قلت لها كما لو كنت أخاطب نفسى .

- لقد مر عامان على زواجنا.

- وما زلت آمل أن تحبني يوماً، فالحب الحقيقي يأتي بعد الزواج.

واصلت حديثي إلى نفسي بصوت تسمعه ميرفت .

- لماذا لم تعرضي نفسك على طبيب ؟

امتزجت دهشتها بفرحتها بخوفها وهي تقول :

- لقد فعلت .

لم أكن أتوقع سماع هذه الإجابة .

- لماذا لم تخبريني؟

- لم أشأ أن أسبب لك حرجاً فأنت عندي بالدنيا.

- وما هو الحرج ؟ .. أقصد ماهي النتيجة ؟

- ليس بي أي عيب خلقي .

عودة إلى جداول السعادة. أيهما أفضل : عبد الخالق المفلس المديون الذي يستطيع أن يمارس قوته كثور طليق، أم عبد الخالق الغني الذي تتباهى أمامه زوجته في حياء بخلوها من أي عيب خلقي؟. الأصل في الخلقة الآدمية هي الصورة الحسنة التي رسمها الخالق في عباده .. أي عيب فيها لا يخلو من حكمة يدركها الخالق وحده . لست أريد أن أعرف ما الحكمة في تقييدي بين هذين الخيارين . حتى لو حاولت أن أريد فلن أعرف.

- إذن فالخلل عندي .

- كل شئ بأمر الله . دعنا من هذا الحديث أرجوك.

- وما المانع من مواجهة الأمر؟

- افعل ماتراه، ولكنك عندي أهم من ألف طفل.

وما دام المالك الحقيقى للوريقات المطبوعة هو المالك الأوحد لها، فمن الطبيعى أن تنعكس آثار هذه الملكية على مكونات النصف الأسفل فى تسلسل منطقى للأشياء، بحيث تأتى الوريقات فى المقام الأول يليها المعدة ثم شئ الإنجاب، ولكن ... أين راحت المشاعر؟ هذا سؤال ليست عندي إجابته، فالإجابة عند مديحة ونعيم وحسين وجاويش من المخلوقات العاقلة، وعندالكلاب والصراصير من المخلوقات غير العاقلة، وعند العباءة المثقوبة من منتصف الخلف والدرع الجديد من الجماد.

لدي الوريقات والمعدة والشئ الآخر. لن أفكر . أريد طفلاً. أتخلى عن رغبتى فى معرفة أية علاقة بين الحب والجنس والإنجاب، أو بين أي شئ فى هذه الدنيا وشئ آخر، فكلها كلمات منسحقة. أتخلى عن نصيحة آرتين بالاحتراس من المرأة لأنها تستهلك وقتاً على حساب جمع الوريقات المطبوعة. أتخلى عن فزعى من جرأة سمير الذي يري فى الجنس قمة الحب وفى الحب دافعاً إلى الإبداع. أتمسك بأمنية أمى أن تري لى طفلاً أو طفلة قبل أن تموت.

لكن الطبيب قال لى :

- ليكن أملك فى الله كبيراً.

وقال طبيب آخر بوقاحة علمية جامدة.

- لا فائدة.

لا فائدة أيضاً من البحث عن سبب التناقص الصارخ بين تكويني وتكوين أخي حسين الذي خرج إلى الحياة من نفس مخرجي إليها. جاءني بخبث أصفر كريه ليوحي إلي بأن هناك علاقة بين مديحة وسمير . نظرت إليه طويلاً ولم أعطه سوى زفيري محملاً بنواتج احتراقه واحتراقي.

بإنفعال بلغ مداه سألت سمير :

- لماذا تكررت زيارات مديحة لمرسمك ؟

أجاب بدهشة حائرة.

- لست أدري . ربما كانت تريد أن تفضي إلي بسر ثم تراجعت.

- أي سر ؟

- أعتقد أنها ما زالت تحبك.

كل الناس يكذبون .. وأنا أحدهم.

- أم هي نادمة على ضياع فرصتها ؟

وبإنفعال أحكمت ضبطه سألت نعيم.

- ماذا تريد مني ؟

- دوام الصداقة والمحبة .

كل الناس يخادعون .. وأنا أحدهم.

- آه ..

شردت بعيداً . نظرت من شباك البيت القديم . رأيت قارباً جميلاً يغرق ولا أحد يراه.

- ألا تهنئنى بالتوأمين ؟

أنا واثق أن فرحته بهما غير حقيقة. هذا الإنسان لا يعرف كيف يكون أباً .. أنا قد أعرف.

- ألف مبروك.

لا تباع الرجولة ولا تشتري فى جداول السعادة الإنسانية. إنها منحة من الخالق.

- يشرفنى أن تزورنى لتشرب المغات.

فى البرية عوي ذئب جائع، وسألت فهمى.

- ماذا فعلت بالفلوس؟

انتابه الرعب . شعرت بالخجل من نفسى .

- وجدنا الشقة يابيه . ربنا يخليك. الفرح فى الأسبوع القادم إن شاء الله.

- مبروك يافهمى .. خلاص.

من المجهول أصابتنى قذيفة نارية مكتومة الصوت، فسألت المهندس اسماعيل.

- ما أحوال المصنع الجديد ؟

فوجئ بسؤالى . غمرته سعادة حقيقية كالتى أبحث عنها.

- على مايرام .

قلت له بحزم ضاعف من نشوته.

- اعتباراً من اليوم أريد مضاعفة الإنتاج بلا أي زيادة فى الأجر.

وفى المساء، اشتعلت قواي الذهنية والبدنية كافة بنيران الذعر الذي استبد بى من قبل، وشربت كثيراً ثم ناديت "سيد" مبيتاً النية بلا سبب على ضربه بشدة، فسألته ورائحة الكحول تفوح بقوة من فمى :

- هل أبدت جميع الصراصير بالمنزل ؟

فتح الرجل فمه مندهشاً ثم غلبته ابتسامته الساذجة فقال :

- طبعاً يا سعادة البيه.

أردت الاستمتاع بالكذب وفقدان الوعى .

- لكنى رأيت صراصير كثيرة منذ قليل.

سألنى ببراءة شديدة.

- أين رأيتها ؟؟ .. فى غرفة النوم ؟

نجحت فى الضحك. حدود النجاح لا تسعها جداول السعادة وتتضاءل أمامها معادلة آرتين :

- بل فى كل مكان أيها الغبى.

- لو كنت مكانك لقتلتها.

ازدادت نوبة الضحك وتراجعت عن رغبتى المجهولة الدافع فى ضرب إنسان أعتقد أنه لا يكرهنى وقالت ميرفت.

- أنت متعب يا "حبيبى" .. لم لا تنام.

- ومن قال إنى متيقظ ؟

- لا مبرر لكل هذا الحزن .

- ومن قال إنى حزين ؟

- أنا أحبك أنت، ولا تعنينى مسألة الإنجاب.

ترى هل تضاءل رصيد قوتى عندها؟. إن كان قد تضاءل فما هى القوة وإن كان لم يتضاءل فما هى القوة وإن كان سيتضاءل يوماً ما، فأين هى السعادة؟

- هل تعلمين كم بلغ رصيدي بالبنك ؟

بلغ إشفاقها علىّ حداً جعلنى أشفق عليها. قالت بصدق أسعدنى ألا ينتابنى فيه شك.

- ليس هذا وقته ياعبده.

علا صوتى متغنياً بلحن من تأليفى :

- أنا اليوم أغنى أغنياء المدينة .. أنا الصدفة والصدفة أنا..

قتلت على فمها ضحكة حزينة . تذكرت أمى ولم أتذكر أبى .

- أعلم هذا ياحبيبى، لكنك بحاجة إلى النوم.

قرار من مخمور واعٍ :

- سأنام وحدي هذه الليلة .

أين أنت يا آرتين ؟ . أثبتت الأيام أنك مجرد برميل ممتلئ بالنقود.

نظريتك عن المال خاطئة. نظريتك عن المرأة قاصرة . رؤيتك للحياة تافهة. أنظر . هذه زوجتى تعاملنى كأم تحن على طفلها المريض :

- نم كما تشاء ياحبيبى .

تتملكنى رغبة كاسحة فى قتل مخلوق آدمى لم تتكون لمعالمه صورة مكتملة فى مخيلتى . لو لم أسافر بعيداً عن هذه المدينة فوراً فربما أعجز عن مقاومة هذه الرغبة المدمرة.

- احضري التليفون .

تجري مذعورة من حولى .. امرأة فاتنة. امتصت عصارة جسدي واستنزفت أعصابى .. ولم أستطع أن أحبها حتى هذه اللحظة .. اللعنة.

- أريد أن أبقى وحدي .

- كما تشاء ياحبيبى .

فى الصباح كتبت توكيلاً باسم حسين لإدارة مصانعى، ودون أن يعلم أحد ، وعلى متن أول طائرة سافرت إلى اليونان وقررت أن أترك كل شئ على حاله إلى أجل غير مسمى ... نسيت ميرفت أن تصفنى بقوة الإيمان .

قال الطبيب لميرفت :

- مبارك . حامل فى شهرين .

تكثف لديها شعورها المتوهج بالاعتزاز بجسدها ، طاغياً بقوة على إحساسها بالمفاجأة غير المنتظرة والتى كانت فى حكم المستحيل. تمنت أن يكون عبد الخالق بصحبتها فربما فكر من جديد وقرر أن يحبها .. وإلا فلماذا تزوجها ؟ .. ولماذا لم تسأله هذا السؤال أو تسأله حتى لنفسها ؟ .. وهل يأتى الحب بقرار ؟ .. سألت سمير بلهفة طاغية .

- ألم يدلك على مكانه قبل سفره ؟

لم يخطر ببال سمير أن ميرفت تجهل مكان زوجها. أجاب بصدق .

- أبداً

تنازلت عن بعض كبريائها وهى تستخبر الصديق عن مكان الزوج.

- ألا تتوقع مكاناً معيناً يحتمل سفره إليه ؟

- قد يكون باليونان لزيارة أبيه.

- هكذا خمنت أيضاً .. لكن لماذا لم يخبرنى ؟

شعر سمير بحرج موقفها. أجاب ببساطة شديدة كما لو كان الأمر عادياً.

- لعبد الخالق شطحاته الغريبة التى لا يجرؤ أحد على تفسيرها.

قال مرادبك :

- انشقت الأرض وابتلعته .. لا أحد يعرف مكانه .

لم يكن من الصعب عليها أن تفهم ولو قدراً يسيراً مما يدور فى الخفاء بين عبد الخالق وأخيه، فبالرغم من انشغالها الدائم بنفسها وولعها الشديد بجسدها إلا أنها فكرت بحيرة شديدة فى حكاية التوكيل الذي علمت أنه تركه لشقيقه قبل سفره المفاجئ. ولما لم تجد تفسيراً مفهوماً لهذه الأشياء فإنها عادت بتلقائية طبيعية إلى عالمها المعتاد بعد أن أضافت إليها الطبيعة جسداً جديداً يعيش داخل جسدها، فأمدتها بمصدر جديد من مصادر النشوة التى صار يحلو لها أن تنهل من رحيقها.

لم تكن غريزة الأمومة طاغية على مشاعرها يوماً، لكنهااستقبلتها بمزيج من الفرحة والحذر بعد أن اجتازت مشاعر المفاجأة فى بساطة غير عادية .. فكيف يحدث هذا فجأة وهى التى لم يمسسها جسد غير جسد زوجها، بل ولم تفكر لحظة فى رجل غيره منذ عرفته وتعلقت به دون مقدمات. ربما أوعزت ماحدث إلى قدرة الخالق صانع الحياة والموت. ربما لم تفكر كثيراً فى هذا الأمر حتى أنها استقبلت نبأ الحمل بمشاعر متنازعة بين الفرحة والحذر طغت على دهشتها لوقوع النبأ نفسه . الفرحة لأنها

ستصير أماً قادرة على استخلاص جسد من جسدها تري فيه كائناًمجسماً للذة الجسد التى تتملك حياتها وتؤكد وجودها، والحذر لأن كيان المخلوق الجديد سيختصم من كيانها، وجسده سيقتطع من جسدها الذي يتجسد فيه هذا الكيان. سوف تترهل بطنها بعد الولادة. سيسحب الجنين عناصر الغذاء من دمها وضروسها وأسنانها مهما تعاطت من مقويات. بوجود هذا المخلوق الجديد سوف يتأكد وجودها ويبدأ فى التلاشى فى آن واحد. سترضعه من ثدييها ليمتص منه حياته على حساب نضرتها وجمالها. سيفجر فيها بركاناً من المشاعر الجياشة التى لم تألفها من قبل. سيجعلها تغفل أنوثتها أو تنشغل عنها. ستقتطع العاطفة الرقيقة الشفيفة من الأحاسيس الجلدية العنيفة اللذيذة التى تمرست عليها وذابت فى عبادتها.

هكذا استقبلت ميرڤت نبأ الحمل فى غياب زوجها الذي تركها دون أن تعرف لماذا أو إلى أين تذهب .

......

قال حسين لمجدي بشفة صفراء .

- من الأكرم لك أن تستقيل قبل عودة عبد الخالق.

أشعلت العبارة نيران الكراهية الأصيلة فى قلب مجدي، لكنه لم يظهرها وإنما تساءل ببرود شديد.

- لماذا ؟

- لا تسأل عما تعرف إجابته.

نظر إليه مجدي بعينين تفيضان بالحقد والمرارة. لم يمهله حسين كثيراً، عاجله بقوله :

- ما معى من مستندات تدينك يكفى لإدخالك السجن بمجرد إدارة قرص التليفون .

استرجع مجدي علاقة زمالتهما القديمة. كان حسين مولعاً بالانقضاض على ما يملكه غيره والإستئثار به لنفسه.

- وماذا تفيد من التخلص منى بهذه السرعة؟

- لأوقف استنزافك أموال أخى .

- أنا ؟؟؟

ضحك مجدي ضحكة متذئبة أفصحت عن كشفه الصارخ لادعاء حسين، ثم قال دون أن تفارق الابتسامة شفتيه.

- تريد أن ترثنى حياً بلاحق ؟

تحسس حسين بيده حافظة نقوده على صدر سترته وقال بابتسامة انتصار لا تشبه الابتسام فى شئ .

- معى توكيل

- افعل ما يتراءي لك فلن أستقيل إلا بأمر عبد الخالق.

- سأبلغه وستطرد بفضيحة جنائية .

قال مجدي ساخراً فى لهجة لامبالية ضاعفت من استثارة حسين :

- كأنك لم تبلغه من قبل .

- ...

- أنا أعرف أنه يعلم بكل شئ، لكنه لم يقرر فصلى وهو صاحب العمل، أما أنت فموظف عنده مثلى تماماً .. وأنا باق حتى يعود.

- أردت أن أبقى على الزمالة وعشرة السنين، لكنك تصر على النكران.

واصل مجدي سخريته من أكاذيب حسين المفضوحة مستخفاً بتهديداته.

- يارجل وحد الله.

خرج حسين من الحوار منهزماً، ساخطاً على إصرار أخيه أن يبقى على مجدي بالرغم من تلاعبه الذي انكشف. لم يكن على وعى بفلسفة عبد الخالق من هذا الموقف، بل كان يميل إلى الاعتقاد فى سذاجته وضعف ثقافته وقصور وعيه. لكنه أراد أن يوهم الجميع بسطوته ويؤكد لهم أنه المفوض الأوحد وصاحب الكلمة العليا فى غياب أخيه.

تعمد أن توحى تصرفاته وأقواله بأن عبد الخالق لن يعود، وحتى لو عاد فإنه سيترك له ادارة الشركة.

استدعى اسماعيل. أمره بتخزين كل المنتج ووقف البيع لخلق سوق سوداء تمكنه من رفع مفاجئ للسعر. عارض اسماعيل فى تنفيذ هذه الأوامر الغريبة، غير أنه لم يملك فى النهاية سوي الموافقة والتنفيذ.

أصدر حسين أمراً آخر بإيقاف مجدي عن العمل ومنعه من ممارسة اختصاصاته حتى لا يتمكن من معرفة ما سوف يجنيه من هذه المغامرة.

استطاع مجدي بأسلوب ملتو أن يحصل على ما يريد من معلومات عن طريق فهمي. سارع حسين بطرد فهمي من العمل . احتد الصراع بين حسين ومجدي حتى وصل إلى ذروته فبدا الأمر وكأنما ليس للشركة صاحب حقيقى .

.....

قال الشيخ رحمة الله الهندي عليه رحمة الله أن المسافة الزمنية ما بين موت سيدنا آدم وولادة سيدنا نوح تقدر بمائة وستة وعشرين عاماً، وكان قوم نوح قد اتخذوا لأنفسهم أصناماً يعبدونها من دون الله كيعوق ويغوث وسواع، فظل ينصحهم تسعمائة وخمسين عاماً دون جدوي، وكان لا بد له أن ييأس منهم فقال :

" رب لاتذر على الأرض من الكافرين دياراً".



تجشم الكراهية بثقلها الكريه على حياة مديحة مع نعيم. يزداد شح

الزوج وتقتيره.يفصل المال بينهما بحاجز من فولاذ. تنفصل عنه مديحة بتوأميها فى غرفة أخري رافضة أن يلامسها. تأتى إليها الإشاعات المترددة فى الحى بنبأ عن علاقة غامضة بينه وبين راقصة بأحد الملاهى الليلية . تعجبت. خفت صوته الذي طالما علا بضرورة ادخار ثروة لتكون نواة لمشروع تجاري أو صناعى ينقله إلى مصاف الأغنياء أسوة بعبد الخالق. هاجمته بشراسة.

- ستعيش فقيراً وتموت فقيراً مهما جمعت من مال.

- هكذا تصور لك كراهيتك لى.

- ولن تصل يوماً إلى ما وصل إليه عبد الخالق.

- هكذا يصور لك حبك له.

رمقته فى تحد واحتقار. تعمدت ألا تنكر حبها لعبد الخالق ولو بالقول. واصلت استفزازه.

- مع هذا فأنت ترضى لنفسك أن يستأجرك لتعليمه.

لم يعبأ بانفعالاتها وقال ببرود.

- أنا لا أرفض النعمة.

مديحة لا تستطيع استفزاز نعيم . هو الذي يسهل عليه استثارتها حتى لو لم يتكلم.

- لتنفقها على راقصة.

- أنا حر فى حياتى الخاصة ما دمت تمتنعين عنى.

لم تستطع الصمود . انفجرت صارخة.

- أنا أكرهك يا أخى . طلقنى.

ابتسم نعيم ابتسامته الصفراء الداكنة وقال بشفتين مرتعشتين.

- ليس بهذه السهولة يا زوجتى العزيزة.

- ٢٥ -

من نافذة المرسم تطلع سمير إلى غروب الشمس. لحظة صفاء لا تعوض. خليط الألوان المبهر يتأله فى السماء. يحرك أشجانه المدفونة تحت رفات السنين الطوال. بين الألوان تراءت له أطياف تلك السنين تنبعث من خدرها فى هدوء. تؤصل حيرته بعيداً عن ارتباطه الوجدانى الوثيق بحيرة صديقه الحميم، فحيرة الصديق قد استفحلت بمرور السنوات إلى جحيم من الشك والقلق والعذاب. كان سمير يخشى أن تقوده حيرته إلى نفس المصير. تساءل لماذا هجر أمه وأباه وهل هرب من المال - حين هرب - بحثاً عن الفن من خلال الحب أم عن الحب من خلال الجنس أم عن الله من خلال الفن. تزاوجت فى عينيه ألوان أسفرت عن ألوان أخري وما

زالت الشمس تغوص في غروبها.

انساب في الكون لحن شفيف دغدغ أحلامه القديمة. أي جحيم كان المال يثيره. الأب يريد أن يضاعف موروثاته وممتلكاته. الأم تنافسه في نفس المضمار وكأنهما غريمان يتصارعان. للحب - عنده - رائحة لم يشمها يوماً بين جدران "الفيلا" الأنيقة التي كان يعيش بها. مشروعات زراعية عديدة تربط بينهما بالمشاركة المالية. النهار عمل وصراع. الليل حسابات وأرقام وخلافات وصياح وضجيج . ماذا يفعل هذان المخلوقان البشريان . ماذا يريدان ولماذا ؟. ألأجله بعد موتهما؟. انه يفضل ألا يتركان له شيئاً على أن يكتوي بهذه النار المحرقة. لم تكن بينه وبين أحدهما علاقة تذكر. لم يصل ارتباطه بأحدهما حتى إلى درجة الصداقة. كثيراً ما نسي ملامح وجهيهما .. الأب والأم ..

عندما التقى بآباء وأمهات في سفراته العديدة إلى الخارج ظن أن عاطفة الأبوة والأمومة عاطفة عالمية. الآن يدرك كيف شذت القاعدة عند أبويه. أنكرت كل حاسة من حواسه صلة الدم التي تربطه بكليهما.

فكر أن يحرق أوراقهما وأموالهما المودعة بخزانتي الفيلا قبل أن يختفي من حياتهما، لكنه لم يكن يعرف كيف تفتح الخزانتين أو إحداهما، كما أنه لم يحاول .

للأب علاقاته الخاصة بالنساء، وللأم علاقاتها الخاصة بالرجال، ويبدو

أن كلاً منهما كان يعرف هذا عن الآخر حق المعرفة. كثيراً ما تهامس عنهما مجتمع الفقراء الذين يعيشون فى هدوء داخل دائرة وجودهم فحسب. لكن الأموال تكاثرت تلقائياً حتى تحولت عيونهما إلى عيون نمرين ضاريين.

كان يتأمل وجهيهما أحياناً فيشعر بذعر شديد. أسقطا من قاموس كلماته عدة كلمات كالأسرة والحب والمال، وبرزت كلمة الموت على صدر صفحات القاموس. أصبح الموت عنده هو الحل الوحيد للتخلص من عيون النمور، فى أحلام يقظته كان يراهما ممددان كل فى فراشه فاقدي الحركة والنبض، طبيعياً مرة، ومرة إثر جريمة متعمدة كفتح مستودع الغاز أو دس السم فى الطعام والشراب معاً لضمان سرعة القتل، وأحيانا بتفريغ خزانة مدفع رشاش فى جسديهما ..

قبل رحيله فكر أن يترك لهما رسالة يكتب فيها : "استحالة أن أعيش مع وحشين ". لكنه استبدل بالرسالة لوحة مائية رسم فيها نمرين يتصارعان وينزفان دماً غزيراً وبينهما كوخ أخضر متهدم، ثم غادر الفيلا إلى غير رجعة.

لم يحب صديقاً كما أحب عبد الخالق. عندما عرفه أحب فيه إفلاسه الشديد وسعيه الإضطراري إلى المال لتحقيق أبسط حق من حقوق حياته.. الكوخ الأخضر .

تابع تطورات حياة صديقه منذ البداية بشغف وجدية شديدين، وكأنما

أصبحت هذه المتابعة عنده مسألة حياة أو موت .. ومع كل قفزة يقفزها عبد الخالق تتراءي له عيون النمرين والكوخ الأخضر المتهدم وحياته التعسة الموحشة داخل مرسمه الضيق، وشعوره بالقهر لاضطراره أن يعيش على الإيراد الشهري الذي يأتيه من أبويه، وكراهيته الدفينة للمرأة وحبه الشديد لها، ثم رفضه فى النهاية ذلك الإيراد واكتفائه من المال بعائده المتواضع من بيع لوحاته.

أمضى سمير ليله يرسم ويصلى . هام فى جو أثيري يشغله عن العالم بأسره . فوجئ بمديحة تعوده من جديد. دب الشك فى قلبه. ماذا تريد هذه السيدة الكريهة مرة أخري؟ . استمع إلى شكواها من نعيم بقلب مغلق وأذن صماء . تبددت الغيوم الصوفية الساحرة. أغلق من خلفها الباب وقد بلغ به التوتر مبلغاً شديداً، فقرر أن يصلى ثم تجرع بضعة كؤوس من الخمر، ودون أن يدري أدار قرص التليفون بأصابع ممغنطة عدة دورات . بعد أقل من ساعة دق جرس الباب، فإذا هى من طلبها منذ قليل .. حبيبته السابقة .. زوجة صديقه العزيز.

.....

واصل الثعلب حواره مع القرد..

- هل تحب قردتك الأصلية ؟

- بالطبع .

- فلماذا تعاشر غيرها ؟

- الحب شئ والجنس شئ آخر.

- إذن فأنت حيوان حقيقى لأنك قادر على معاشرة حيوان مثلك دون أن تحبه.

- لست الحيوان الوحيد الذي يفعل هذا، فقد سمعت أن كثيراً من اخوتى الآدميين يفعلون مثلى .

- ٢٦ -

أنا انسان عاجز عن الفرحة، فالحزن يجري فى دمى، ينبع من قلبى ويصب فيه ... أنا إنسان لا يحبه أحد، ولكنى - على الأقل - لا أكره الناس ...

سليم يحبك . سمير يحبك . السيد يحبك . فهمى يحبك . العمال يحبونك ....

لا تستعذب تسول المشاعر وافعل شيئاً ... لا تنس حدود قدراتك الإنسانية وإلا هلكت دون أن يشعر بك أحد.

" لأن الحب شعاراً صار، ولأن الصدق غدا وهما والحلم سراب" ..

" لأن العقل بعزلته سفاح شره، يغتال ولا يشبع يغتال "..

" ولأن البشر بطبعه مهموم بالفكر ومهموم بالنسيان "...

" فلا جدوي عندي من فكر، ولا معنى للنسيان " ..

أنا إنسان غير مبرر الوجود . لست أعرف لماذا أتيت إلى هذا العالم الغامض المخيف وماذا أفعل به ولماذا كان من الضروري أن أفعل به شيئاً . الحقيقة أنك لم تفعل به أي شئ وإنما هو الذي فعل بك . دائماً يفعل بك .

أنا الذي طاردته الكلاب والصراصير..

أنا الذي ثقبوا عباءته من منتصف الخلف ..

تنبح الكلاب وتنزلق الصراصير نهاراً حول درعى، وفى الليل تجتاحنى العفاريت. هل أنا حزين لأننى عاقر . وما أدراك بحالك لو كنت قادراً على الخلفة؟ ربما كنت ستبدو أكثر تجهماً، فما معنى سعادة الأبوة وما فائدتها إن كان للسعادة فائدة أو إن كان ضرورياً أن يكون لكل شئ فائدة. لست أريد أن أري نفسى أتجدد. أريد أن أهلك وأفنى وأتلاشى. إنها رحلة كريهة لست أبغى أن أقطعها مجبراً حتى نهايتها مادمت لم أجد المعنى الذي أنشده والذي لم أعرفه على وجه التحديد حتى الآن ..أليس هو الخلود؟ . هه؟ . إنى أكره هذه الكلمة السخيفة المفرغة من أي مضمون طالما ارتبطت بعبد. حين أموت فلن أشعر أو أحس أو أفكر .. فماذا يعنى أن يحمل طفل اسمى بعد ذلك؟ وسواء أحمله أو ألقى به فى مرحاض فلن أدري بهذا شيئاً . كم هو مضحك أن يتشدق بعض

الرجال بغباء القول أن أبناءهم سوف يخلدون أسماءهم . ما هو المعنى ؟ . أين هو ؟.

لكن ، لا تقطع خيوط الأمل الواهية الباقية. أنت الآن على بعد خطوتين من باب عيادة طبية فى مدينة أكثر تحضراً من مدينتك. يتحدث طبيبها بلغة غير لغتك. اقدم على خطوة منهما فربما قادتك إلى الخطوة التالية، وربما جد فى حياتك جديد من مجاهيل الغيب قد يحيل غيامتها إلى صفاء، لا تقطع الأمل يا عبد الخالق.

قال طبيب الغرب وفى عينيه حزن الشرق :

- الأمل ضعيف جداً.

انهارت آمال عبد الخالق، فتساءل بصوت يأتى من عالم آخر.

- لماذا ؟

- حكمة الخالق.

ومادمت أنا عبد الخالق فينبغى أن أخضع لحكمته الغامضة. أنا عبد الخالق سليم. أنا أنا أنا أنا ..سأظل أؤكد لنفسى أننى أنا دون جدوي . لعبة فاشلة تفتقر إلى المعنى كما تفتقر إليه سائر الأشياء. فى النهار يجتاحنى العدم بالرغم من سماعى نباح الكلاب ورؤيتى لإنزلاق الصراصير، وفى الليل تجتاحنى العفاريت. لست أدري ان كانت هذه العفاريت موجودة حقيقة أم لا. فإن كانت كائنة كغيرها من المخلوقات مثل الكلاب والصراصير مثلاً، فما الحكمة من وجودها ؟ .. وما الحكمة

أيضاً من وجود بعض المخلوقات الأخري مثل هذا الأنا الممل ؟

آه .. كم تعبت من هذه المخلوقات العجيبة التى تتلذذ بمطاردتى .. وأظل الليل بطوله أجري وتجري ورائى حتى قررت ذات ليلة أن أقف فجأة لأري ماذا بنيتهم أن يفعلوا بى . لكنهم توقفوا لحظة أن توقفت، وظلوا ينظرون إلى نظرات غريبة . بعضهم أخذ يحرك لسانه يميناً وشمالاً وبعضهم أخذ يرقص لى حواجبه . بعضهم كان يضحك بسخرية والبعض كان ينظر إلى بحقد شديد. ثم تجرأت ذات ليلة واقتربت من عفريت "حاقد" وصرخت فى وجهه قائلاً:

- هـاه ...

لكنه اختفى فضحكت من بعد خوف وواصلت عدوي فواصلوا العدو من جديد. استمرأت اللعبة فتوقفت مرة أخري وإذ بى ألمح العفريت المختفى متوقفاً بحذر وسط بقية العفاريت الذين توقفوا معى فى نفس اللحظة، وكأنما كانوا على بينة من نيتى المسبقة أن أتوقف.

لهذا السبب فكرت - فى طريقى إلى أبى - أن أتحرر من لحمي وجلدي، عسى أن تتفجر طاقات الحب المحبوسة بينهما بإرادتى أو رغماً عنها. قلت انه كان من المحتمل أن أحب الناس ويحبوننى وأن أنجب وأسعد بأطفالى وأن تستحيل مشاعري الميتة إلى حب جارف للحياة، وأن أقلد بقية الناس فى الخوف من الموت . بحثت عن دليل أتمسك به حتى لاتفلت منى هذه المشاعر الطيبة فوجدت أنه "المصادفة" .. ذلك أنه

كان من الممكن ألا أولد لسليم وزوجته فى نفس الحارة التى عشت بها، أو على نفس البقعة من هذا الكوكب الكروي الهائل الذي يدور حول نفسه، حيث كان من المحتمل فى مثل هذه الحالة ألا أكون أنا، بل أن يكون اسمى جونسون مثلاً وأن يكون اسم أبى كارل واسم أمى فلورا، ليستحيل بالتبعية أن تسمع أذناي كلمات مثل نعيم ومديحة وجاويش وحسين ومجدي.

تمسكت بالدليل وتذكرت صاحب كل الوريقات المطبوعة الذي لولا أن شاء بى ما شاء، لما كانت المشيئة.

كما تذكرت آخر ما توصلت إليه من معادلات فاشلة غير متساوية الأطراف فى جداول السعادة المفقودة. لهذا توجهت إلى أبى بالسؤال. كان يجلس فى بهو الفندق الكبير ضاحكاً يتسامر مع أناس لا يعرفهم باللغة أحياناً وبالإشارة فى معظم الأحيان، وقد انتقل من ركن السعادة المغرق فى محليته إلى بهو شاسع يجلس به رجال من مختلف أنحاء العالم.

- ما قولك فى "الصدفة"؟

- الصدفة هى القدر أو المكتوب.

- لا تؤاخذنى يا أبى، لو لم يكن معنا المال اللازم لما سافرت وعولجت وشفيت.

انفجر أبى فجأة فى الضحك من قولى . ربت على كتفى بحنان وطلب منى ألا أجهد نفسى بالتفكير كثيراً فى هذه المسائل العلوية.

هكذا تحرر بسرعة من مسئولية وجوده على قيد الحياة. كم أحسده على فهمه العجيب لمبررات حياته. لو لم يكن أبى لقلت انه إنسان غبى .

- فما فائدة وجودك ؟

فكر قليلاً ثم قال بحماس شاب يتفجر بالحيوية.

- الاستمتاع به .

فكيف أستمتع يا سليم بحياة جوفاء قامت من أساسها على مصادفات مهما ابتكرت لها من مسميات كالقدر أو المكتوب أو المقروء أو المسموع .. وكيف أفترض إمكانية تحقيق هذه المتعة وأنا لم أستشعرها أبداً .. إلا إذا كنت قد مارستها دون أن أدري، وهذا أمر وارد، فالصراصير ثقبت عباءتى من منتصف الخلف، والكلاب صارت تعوي كلما رأتنى متدرعاً بدرعى الجديد . تعوي فأسد أذنى فأين المتعة؟ .. أين المتعة يا سليم بوجود ينتهى صدفة إثر مطاردات مجنونة لا معنى لها من مخلوقات مشكوك فى وجودهات تسمى بالعفاريت ؟

طالب أبى أن يعود معى إلى مدينتنا قائلاً أن أمى أوحشته . قلت له فجأة :

- أنا لا أستطيع أن أحب "حسين ".

سألنى بدهاء .

- هل تكرهه ؟

أجبت بسرعة وبصدق .



- لا

- الحمد لله

بهذه الكيفية حسمت عنده المسألة فارتدي عباءة اطمئنان غير مثقوبة من منتصف الخلف فحسب، وإنما مليئة بالثقوب فى كل مكان، غير أن الظريف فى الأمر أنه يرتدي العباءة ولا ينظر إليها فلا يري ما يري ما بها من ثقوب .

سألنى آرتين (الذي قال يوماًإنه أحبنى ) :

- أين عبد الخالق ؟

أجبته ساخراً .

- إنى أبحث عنه

لم يعبأ بسخريتى، بل اتضح لى أنه معتقد فى صحة اجابتى . قال بجدية واضحة.

- من الضروري أن تعثر عليه لأننى أفتقده، فيك.

حدثنى عن "ميناس" الجديد بعد أن تفرغ لرعايته . قرر بشدة وحسم أن معادلته المقدسة كانت أكذوبة كبري وأنه ينكرها الآن تماماً. فاقت سعادته بهذا "الإنتصار" - كما أسماه - سعادته بالكم الهائل من الوريقات المطبوعة التى يمتلكها. لفتّ نظره إلى حدة هذا التحول فلفت نظري إلى أننى الآخر كنت أكثر إشراقاً قبل أن أعرف الطريق إلى وفرة تلك الوريقات فى حافظتى وفى خزانتى وفى بنوك مدينتى .

مطلوب إذن أن أجد عبد الخالق الجديد حتى أستعيد ملامح وجهى القديمة. صرصور يجري الآن أسفل الحائط. لن أتركه . قتلته . سحقته سحقاً .. وأعود إلى مدينتى مصطحباً أبى .. والويل لهذا الكون .سأطلق على مخلوقاته كل العفاريت. سألقى بدرعى فى وجوهها الميتة، فلم يعد هناك مبرر لارتدائه.

أنهكنى ثقله الشديد ولم تتوقف الكلاب عن النباح من حولى ولا الصراصير عن الانزلاق عليه بالرغم من صلابته ولمعانه .. سأواجه أيامى المقبلة بلا ردع ولا عباءة.

.....

قال البعض أن كنعان بن نوح كان ابن امرأته من غيره، وقال آخرون أنه كان من الزنا دون أن يعلم نوح بذلك، وقد استبعد كثيرون أن تكون امرأة النبى زانية.

.....

قالت بتوسل :

- لا تتركنى أعود إليه.

تشكك لحظة فى شرعية بنوته لأبويه. لو لم يكن بالفيلا خزانتان كبيرتان تخص كلا منهما واحدة، لما واجه الموقف. تخلص من ذراعيها اللتين احتضناه بشغف عظيم. نكست رأسها فى ذل.

- افعل بى ماشئت ولكن ابقنى معك.

- انت امرأة ساقطة ولكنى أحبك .

- أنت السبب . أنت المسئول.

الخزانتان هما المسئولتان، العمر الذي أنفقه أبى والعمر الذي أنفقته أمى هما المسئولان .. النمران المتصارعان والكوخ المتهدم .

- لقد سلبت إرادتى وإنى رهن إشارتك .

أشعل سيجارة .

- الحل الوحيد أن يطلقك لأتزوجك .. أليس كذلك ؟

- لاتسألنى شيئاً.

- دفعنى حبك إلى خيانة صديقى ودفعتنى خيانتك إلى امتهان كرامتى.

تركها بالمرسم متجهاً إلى منزلها. قرر أن يواجه صديقه بالمأساة وليكن ما يكون. وجده معلقاً إلى السقف بحبل غليظ، وقد برزت عيناه وتدلى لسانه. لم يعد إلى مرسمه مرة أخري. اختفى . لم يعرف أحد مكانه .

.....

قال سيدنا سليمان "اللهم عم على الجن موتى حتى يعلم الإنس أن الجن لا يعلمون الغيب". فنحتها عصا فتوكأ عليها حولاً ميتاً والجن تعمل، فأكلتها الأرضة، فتبينت الإنس أن الجن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا حولاًفى العذاب المهين.

## - ٢٨ -

فى البداية خيل إلى أننى لم أسمع جيداً ما قالته ميرفت، أو أننى سمعت ولم أفهم ماذا كانت تعنى بقولها انها حامل، رغم أن قولها هذا منطوق باللغة العربية ولا يحتمل أن يعنى شيئاً آخر غير ما يعنى. كانت فرحة مبهورة. لم يكفنى هذا . كان يجب أن تجن من الفرحة لو

كانت حاملاً منى . لا تعنى هذه الـ "لو" غير الخيانة . أشك فى هذا .. وفيه مخلصة ؟ .. أشك أيضاً . هل أصدق قول كبار الأطباء هنا وفى اليونان أم أصدقها ؟.

افترض أيها التعس بلا مبرر أنها حامل منك، فهل تفرح أم أنك مازلت عاجزاً عن الفرحة فى مثل هذا الموقف ؟. إن لم أكن أنا فمن يكون؟ . اختفى سمير بعد انتحار صديقه القديم . هل هناك رجل آخر لا أعرفه ؟. هل جننت حتى يقتحم هذا الوسواس خاطرك بهذه القوة؟. لم يعد هناك شئ صادق فى حياتى سوي تلك الكلمات التى أكتبها على أوراقى ولست أدري لماذا أو لمن أكتبها إن لم أكن أكتبها لنفسى وبلا سبب أعرفه. ما هذا التزاحم الفوضوي للأشياء فى رأسى الفارغة وفى حياتى الأشد فراغاً ؟.

مصانعى متوقفة لانتهاء الكمية الكبيرة من المادة اللاصقة التى أعددتها بنفسى قبل سفري. شئ مضحك ألا يعرف أحد سر هذه المادة من بعد آرتين غيري . ماذا يحدث لو مت فجأة؟ وماذا يعنى أن أموت، وما معنى أن مات الصديق المخدوع منتحراً دون أن أتعاطف معه لمجرد اعتقادي أننى أحب سمير ؟ .. أما جاويش فقد أعلن إفلاسه وباع آلاته المتهالكة فى سوق الخردة ويبدو أنه تفرغ الآن للإجهاز على حياتى التى لا تهمنى . فلا بأس أن أشعل سيجارتى من المدفأة بوريقة مطبوعة من فئة كبيرة كما يفعل سكاري البترول فى العواصم الأوربية . إن رائحتها

كريهة لكنها ذات لهب متميز . ألا يجوز أن أقتل جاويش دفاعاً عن حياتى التى قلت انها لا تهمنى ؟. وستقتل من أجل المال.

لقد بدأت الآن أجيد اللغة الإنجليزية وهأنا أقرأ الرواية بعد الرواية دون احتياج إلى القاموس . عظيم جداً . هناك إذن انجازات لا بأس بها ولكن للأسف لا فائدة منها ولا معنى لها. لم أجد المعنى حتى الآن . تقول رسالة سمير بعد اختفائه إن مديحة تحبنى وإنها قد ترددت عليه كثيراً تستنجد بى من جحيم حياتها مع رجل شاذ أبله حقود . وما شأنى أنا بهذا العالم كله ؟؟؟ "لماذا عدت يامديحة بعد كل هذه السنوات؟. لقد اضطررت إزاء عودتك أن أفكر كثيراً وأنا لم أعد أحب التفكير . على مضض رحت أفكر فى قدرتك على تجاهل صدمتى فيك عبر هذا الزمن الطويل . أن ندنس معاً طهارة حبنا القديم أو لاندنسه فالفرق بين الحالتين لم يعد واضحاً أمامى، وأقسم لك على هذا بأي شئ تحبين أن أقسم به".

ربما كان من المحتمل أن أسعى لإنقاذك لو لم تتهالكى على بمطاردة سمير جرياً وراء هذا الهدف الذي أراه الآن رخيصاً.

ومع أن إنقاذي لك هو إنقاذ مؤكد لحياتى إلا أننى أرفض الإنقاذ والحياة معاً. ومهما حسنت نواياك فإن عينى لم تعدا تريان إلا النوايا السيئة، فأنا الآن فى نظرك عبد الخالق بك سواء كان هذا حقيقة أو وهماً. أما الذي كان يحبك فهو عبد الخالق الذي مازلت أبحث عنه وقد أتوقف

عن البحث عنه يوماً بإرادتى أو مرغماً .. فكيف تحبين إنساناً غير موجود ؟.

على سمير أن يبحث الآن فى منفاه الثانى - المجهول - عن حل سحري للمعادلة الملغزة بين فنه ودينه فقد تسبب عجزه عن إيجاد الحل فى تعليق إنسان على حبل مشنقة دون أسباب مقنعة .. أما أنا فزوجتى حامل ..

- ألا تهنئنى وتهنأ نفسك بالنبأ السعيد؟

شئ مضحك حقاً. أنا لا أفهم ماذا أريد، ولا أعرف كيف أفرح أو أحزن. لقد تحولت معادلة آرتين عندي إلى صفر مكعب كبير الحجم لا قيمة له .

- فيم أنت شارد ؟.. هل أفقدتك السعادة عقلك ؟

المصيبة أننى لست أومن بالمعجزات، وحتى لو آمنت بها فليس من المعقول أن تكون هذه اللبؤة المتوحشة صاحبة معجزة دينية، كما أنه من المستحيل أن يترك مثل هذا النوع من المعجزات بلايين البشر ليستقر فوق رأس حياتى أنا بصفة خاصة.

لأن الكون نظام ..وأمام اللغز سدود ..

فكيف يكون وجود، وكيف يكون خلود ؟..

- سأنجب لك طفلاً يا عبده.

لم يعد الأمر يحتمل مزيداً من التردد . إما أنها خائنة وإما أننى

مجنون. إذن فهى خائنة. ولأحسمن هذا الأمر لنفسى بهذه الكيفية وإلا جننت بالفعل .. ويبقى شئ واحد . أن أعرف الفاعل.

صورت لها فرحتها أننى مذهول . ويبدو أننى كنت كذلك. أرادت أن تعيدنى إلى وعيى فقالت بثقة رائعة :

- لا مستحيل أمام عظمة الله وقدرته.

من أين أتيت بهذه التقوي المفاجئة أيتها الأنثى ؟ . يجب أن تعلمى أننى لن أعلق رقبتى فى حبل، لأننى لو فعلت هذا فسوف أكون الضحية الثانية لصديقى العزيز. لكنى لن أقتله . أريد فقط أن أراه وأنظر فى عينيه .

- لقد حدثت معجزة.

إنها لمعجزة بالفعل أن ينجح صديق فى الاستيلاء على زوجتى صديقين له فى وقت واحد .. ومعجزة أن أهتم بهذه المسألة كل هذا الاهتمام فأفكر فى البحث والمعرفة ثم الانتقام. لكن ما علاقة هذا كله بالوريقات المطبوعة؟. إن المنتحر الأول لم تكن تؤرقه هذه المسألة ولم تكن هناك علاقة بينها وبين انتحاره. السبب المباشر كان- فى اعتقادي- هو شعوره بالألم الشديد حين تخيل فى لحظة عدمية أن زوجته تتعري لرجل غيره وبالذات لصديقه الحميم .. كم هو غبى . ماذا يضيره فى ذلك؟ .. لماذا لم يتركها له ويذهب لحال سبيله؟.

أما المنتحر الثانى الذي لم ينتحر بعد فمسألته بالغة التعقيد لأنه

أنا.. ولأننى صاحب مليونين من الوريقات المطبوعة التى عرفت طريقها إلىّ بالمصادفة، ثم تزوجت لسببين لا ثالث لهما وبالمصادفة أيضاً. ولأننى كنت أحب امرأة أخري هجرتنى من أجل الوريقات المطبوعة. امرأة فضلت بعض ألياف سليولوزية على روح إنسان. لأننى أبحث عن نفسى منذ تكاثرت وريقاتى فثقبوا عباءتى من منتصف الخلف وألقيت بدرعى وطاردتنى الكلاب والصراصير والعفاريت ..

لأننى أدركت تمام الإدراك ألا طائل من وراء الأشياء ..

تلك التى يسمونها فى مجملها حياة ..

لا طائل .. لا جدوي .. لا معنى ...

ولأننى مللت لعبة المشاهدة والفهم والتأمل ..

لأننى عجزت تماماً عن يقين .. ولأننى عشت حياتى مندهشاً مبهوراً لتكرار تكرار التكرار ..

لأننى أيقنت بشاعة الناس وبؤس الناس، حين يمارسون تلك الأشياء، بحماس أحياناً وفتور فى بعض الأحيان. وأيقنت تفاهة أن تمضى الأيام وتكر الأعوام ..

ولئلا أحسب نفسى مقهوراً على الذهاب فى رحلة لا أبغيها .. ولست أريد لنفسى قهراً ..

لأن الغربة ليل .. والحزن سواد ..

ولأن الأشياء كما يسمونها فى مجملها حياة ..

فإنى قررت بوحى جوانى نبذ الأشياء .. كل الأشياء ..

.....

لم يوجه الثعلب الدعوة إلى الأرانب لحضور الحفل، وإنما تركهم منهمكين فى التكاثر، وكان سعيداً بذلك .

## - ٢٩ -

فى فضاء الكون اللانهائى نامت السرائر فى قدس أقداسها، حين خُيل للبعض أنه يعرف عن نفسه أو عن غيره بعضاً من المعرفة. لكنه قد تبين من الحقيقة اليقينية الباقية أن أحداً لم يكن يعرف شيئاً عما غمض من أسرار تلك السرائر . أما فى العالم السفلى حيث الهوام والحشرات والأسماك والحيوانات، فقد تضاربت المعرفة بالشك وامتزجت الوقائع بالأحلام وراحت المخلوقات تمارس أشياءها فى فوضى لا حد لها .

.....

نعيم :

لو كان بيدي أن أكون شيئاً آخر ما ترددت . أنا مجرد موظف حقير

. موظف بكل ثنية وانثناءة على وجهى وكل نظرة من عينى وكل خلجة من خلجات نفسى . موظف بكل نبضة بكل فعل بكل حركة . الوظيفة تعاستى. سفالتى. طيبتى . حقدي . قناعتى . امكاناتى . خضوعى . تسلطى. وظيفتى أول الشهر ونهايته . بدء الخليقة ويوم الحشر . الموت والبعث . الدين والعبادة. الهم والغم. الحياة والموت . عشت وسأموت موظفاً دون أن يدري بى أحد . لا أعمل بالسياسة حتى تتناقل الصحف أخباري وصوري الفوتوغرافية بسيجارة فى فمى . لست أضارب فى الأسواق المالية حتى يتحدث الفقراء والأغنياء عن تراكم ثرواتى وممتلكاتى . لست أملك موهبة فنية يحسدنى عليها أنصاف الموهوبين فيلفقون لى الأنباء الكاذبة لتزداد شهرتى ويلمع اسمى فأصير نجماً مرموقاً يتطلع إليه الناس بإعجاب وانبهار.

سوق يقع أبنائى فى نفس البئر . سيكررون نفس قصتى بالتأكيد. الدروس الخصوصية لم تغير من حالى . مئات الجنيهات فقدت قيمتها بمرور الزمن. آلاف الجنيهات صارت لعبة فى أيدي أبناء الأثرياء. رأيت ذلك بعينى، فكثيراً ما أصبحت أغشى مجتمعات هؤلاء القوم وأماكن لهوهم ممنيا النفس بأننى سوف أعيش كما يعيشون يوماً ما، يضعون مئات الجنيهات بين نهود الراقصات، وتتقطع حبال صوتى ويسيل عرقى صباحاً ومساءً وصيفاً وشتاء لأجمع الفتات.

أنام منهوك القوي محتضناً آمالى بكل ما أوتيت من قوة وشراسة.

مديحة تكرهنى ولا تطيق أحضانى . أنا أعلم أنها ما زالت تحب عبد الخالق لشخصه كما تكرهنى لشخصى. غبية لا تفهم معنى المال ولا تعرف تأثيره المدمر على حياتى. المال هو البداية والنهاية . جعلنى أريق ماء وجهى أمام غريمى. علمنى كيف أحب أن أحقد عليه.

حاولت كثيراً أن أخرج من حصار عبد الخالق وحياة عبد الخالق دون جدوي . يقولون أن الحقد يدمر النفس لكنه يريحنى. ثقافتى لم تفدنى بشئ . عجزت عن استثمارها. أعرف الصواب وأتجنبه. أري الطريق وأحيد عنه. زوجتى تنفصل عنى وترفض ملامستى . لماذاتكرهنى إلى هذه الدرجة؟. أنا لست بخيلاً وإنما خائف من المستقبل المظلم. تخدع نفسك؟. وماذا عن الراقصة الشهيرة؟. لست أعرف شيئاً عن تلك القوة الخفية التى جذبتنى إليها فضربت بخوفى من المستقبل عرض جدران صالة الرقص. ملعون أبو المستقبل والماضى والحاضر. ملعون هذا الخوف الأبدي. الوظيفة قدر . العجز عن الثراء حقيقة لا جدال فيها. قد أموت قبل أن أتذوق قليلاً من ملذات الحياة. أدبر فأقتر وأشح وأجري وألهث وأشرح وأدخر ثم أنام لأصحو متجهاً كالثور إلى نفس الساقية.

أضواء الملهى الليلى تبهرنى . الموسيقا الصاخبة تدعونى إلى ممارسة الحياة. لن أكتفى منذ اليوم بالانتساب إليها. سأمارسها ولن أعبأ بالنهاية، وأهلاً بالجنون والحماقة .. المطرب الخليع يتغنى بكلمات عجيبة يصفق لها الجميع. كله على كله . شئ بديع. كله على كله. فلسفة

العصر ولا شك. أنا على الراقصة الشهيرة. مديحة على أولادي. عبد الخالق على ملايينه. كله على كله .. وكله قبض الريح.

الراقصة ليست بحاجة إلى جنيهاتى القليلة. لا بد أنها أحبت فى شيئاً لم تكتشفه مديحة. ربما كان تعلقى الشديد بالأمل الذي قررت هي أن تتخلى عنه إلى الأبد . ربما كنت ضوءاً ينير لها طريقاً لست أعرفه . ربما كنت دفئاً يبعث الدم فى أوصال حياتها التى أجهلها تماماً. لقد وجدت فى شيئاً ما. حدث هذا بالتأكيد. لا بد أنه شئ آخر غير احتقار مديحة واستهانة عبد الخالق وهرولتى بين البيوت أشرح الدرس للصبية والكبار. الأستاذ نعيم راح. الأستاذ نعيم جاء . ما أتفه اللقب أمام فلسفة العصر المستلهمة من روح الملهى الليلى على لسان المطرب الخليع واهتزازات وسط الراقصة الشهيرة "يسرا" ورد فيها المستديرين.

- لا تتركنى يا نعوم.

النعيم الذي لم أحلم به حقاً هو أن تدللنى امرأة.. لماذا لم تفعل مديحة معى نفس الشئ ؟

- لماذا تهتمى بى كل هذا الإهتمام ؟

- لأنك غلبان مثلى.

حتى لو كانت كاذبة، فإنى مشدود إليها بعمري، ولن أقاوم .

- أنت غلبانة ؟؟

- بل وأكثر منك غلباً . هذه حقيقتى عارية أمامك مثل جسدي

بالضبط.

سألتها بذهول مضحك عن الرجل الذي علق حول رقبتها عقداً من اللؤلؤ فقالت انه لايعرف كيف يكتب اسمه . ولما لاحظت كم أبذل من جهد خارق حتى أبتلع ريقى ضحكت وأقسمت أنها لا تكذب.الليسانس رخصتى لممارسة الوظيفة . فكرت ببيعها لهذا الرجل . كم سيعطينى ؟. "باكو" أم اثنين أم ثلاثة ؟. "الباكو" عندهم يعنى ألفاً "والأرنب" يعنى مليوناً. كان لا بد أن تكون لهم مصطلحاتهم الجديدة لعالمهم الجديد الذي ظهر فجأة مثلما اغتنى عبد الخالق فجأة، وسوف أظل موظفاًحتى أفارق هذه الحياة.

من المستحيل أن أجرؤ على محاولة خداع "يسرا" لابتزاز أموالها فعقليتها جبارة متمردة تحوي كل تجارب الرجال. قالت لى انها فكرت أن تشنق نفسها بعقد اللؤلؤ فى نفس الليلة التى علقه لها التاجر الجهول حول رقبتها البللورية الغضة. لمحت فى ذات الليلة رجلاً أنيقاً يجلس بالملهى وحوله مجموعة من الرجال والنساء يظهرون له احتراماً شديداً.

تبادر إلى ذهنى أننى رأيته من قبل . سألتها عنه فضحكت قائلة :

- خيبك الله . ألا تعرفه حقيقة ؟

- نعم

- مسكين . ألا تعيش معنا ؟

- من هو بالله ؟

قالت انه فلان بك الشهير . تراه على شاشة التليفزيون. تسمعه في الإذاعة. تقرأ عنه في الصحف والمجلات والمجلات .. همست بجبن دون أن أدري .

- يا اولاد الكلب .

عندما تذكرته أدركت أنني لست الكذاب الوحيد في هذا المجتمع، غير أني أعرف لماذا أكذب، أما هو فلماذا يتحدث عن أشياء لا يحق له الحديث عنها؟ . ماشأنه بالعمال والفلاحين والمثقفين وهو جالس يعب الخمر في نهم يتعارض بشدة مع راتبه الحكومي الشهري؟. قالت يسرا في حذر.

- لا تنظر إليه هكذا كالأبله . ربنا يكفينا شرهم .

وفي بيتها قالت لي ان الله يقسم الأرزاق كيفما يشاء وعلينا ألا نعترض على ذلك وإلا أصابنا الويل في الدنيا والآخرة. انفجرت في الضحك لأنها ذكرتني بأشياء عديدة من بينها مديحة.

مديحة تطلب مني الطلاق. لم يعد للعاطفة معنى على الأرض أو بداخل صدري. كل شئ ينبغي أن ينسب إلى المال : السلوك . الفعل الفكر . المتعة. النية . الرغبة. الأمل .. عبد الخالق يعاملني معاملة الحشرات . دعوته لزيارتي . لم يستجب . لماذا دعوته ولماذا لم يستجب؟ . ماذا أفعل أو ماذا ينبغي أن أفعل حتى أتحرر من خوفي ؟؟.

.....

قال اقتصادي كبير ان رأس المال جبان. قال النسر للأرنب "أنت جبان". قال التاجر الذي لا يعرف كيف يكتب اسمه انه يمتلك أرنبين. قال البغل للأرنب "أنت سريع التكاثر". قال التاجر الذي أحاط عنق الراقصة بعقد اللؤلو ان أرانبه ستكثر وتكثر وتكثر . قال المثقفون "لقد أصبح أصحاب الأرانب سادتنا وتيجان رؤوسنا". قال النسر وقال التاجر وقال البغل وقال المثقفون. فكانت فوضى لا مبرر لها.

.....

حسين :

ما ذنبى أن ولدت على أرض تعانى التخلف فى كل شئ؟. لو لم تر عيناي ما رأته فى شمال غربى العالم لما أحسست بهذه المصيبة. لو كانت تلك المخلوقات التى رأيتها هناك تمثل البشر أو الإنسان فماذا يمثل هؤلاء الناس الذين أنتمى إليهم ؟ . ماذا يمثلون غير الضعف والغباء؟. يتشدقون بقيم معنوية لا يمارسونها فى حياتهم الفعلية. "أهل الشمال يمارسونها ولا يتحدثون عنها". يتحدثون عن الله ولا يعرفونه . "أهل الشمال يعرفونه ولا يتحدثون عنه ". يتعثرون فى شهوتهم للسلطة فيتصارعون ويقتتلون، ومن يصل منهم إلى المقعد الذي يحلم به يمارس سادیته على من أجلسوه عليه."أهل الشمال مستقرون. سلطانهم العقل دينهم العقل وجدانهم العقل. حتى عواطفهم يرسمها العقل ويشق قنواتها بسطوته وجموده". الذين أنتمى إليهم يكرهون الحيوانات لأنهم يدركون

أنها تمارس حياة أفضل من حياتهم. هؤلاء الناس متخصصون فى دس أنوفهم فى حيوات غيرهم . "ألست واحداً منهم ؟". قطيع مرتبط بوحدة جماعية فاشلة متجمدة التفكير. حتى أفرادهم المتميزون فاشلون فى ممارسة تميزهم المنفرد. الأشياء هلامية. التميع يسود . الارتخاء . السكون. لاشئ يحسم يقطع ينهى. فى الشمال مارست المغامرة. عشت حياة طويلة عريضة عميقة عمرها ست سنوات. انتهت المغامرة الأخيرة بإفلاسى نهائياً. لم يفكر أحد فى انتشالى من عثرتى ، كما لم يعقنى أحد - قبل العثرة - عن مواصلة تقدمى وجموحى. كل إنسان حر فيما يفعل . الآخرون لا يشكلون أمامه المانع أو العقبة . افعل شيئاً فأنت مسئول عنه. ضاجع امرأة على الرصيف بحرسك رجل الشرطة. أطلب مكالمة تليفونية لأبعد قارة على الكرة الأرضية تأتيك فى ثوان. أعبر الطريق تتوقف العربات. أركب العربة يرشدك الطريق.أمرض تشفى . أطلب تجد . أصرخ فى الملاهى بأعلى صوتك. أرقص . غن اضحك. ابك. إجر على يديك وارفع رجليك إلى أعلا فلن يلتفت إليك أحد. اعمل تكسب. اجتهد تجنى ثمرة جهدك على الفور. تكاسل لن تجد من يحثك على العمل فتجوع فتموت. على الموائد ورود وزهور . ملامح الأوجه جميلة. التقاطيع دقيقة. الجمال سحر وخرافة. مديحة السوداء الوجه ترفضنى. يثيرنى جسدها الوحشى إلى درجة الهوس. تدعى الشرف وتذهب إلى سمير بالمرسم . أين مكان الدين والحلال والحرام بين قيمهم

المتعفنة؟. تشككنى فى نظرتى للمرأة. كنت أعتقد أن المرأة التى يستحيل نيلها لم تخلق بعد. لا تهمنى علاقتها بأخى سواء قبل زواجها أو بعده فأنا لا أعترف بهذه الأوراق الرسمية الداعرة. لقد اشتهيتها بالفعل. ما يقولونه عن رابطة الدم ليس إلا تفسيراً واضحاً للعجز والتخلف. مالى أنا بأبى وأخى؟ . مالى بهذا المعتوه الذي أنجب ولدين وبنتين ثم راح يشرب الشاي ويدخن السجائر ويقرأ الكتب ويضحك طول النهار والليل ؟..

مالى بذلك الغبى الذي هبطت عليه من السماء ثروة فتلقفها ببلاهة لاحد لها ثم راح يبعثرها ويتركها نهباً للصوص غرباء ؟. فى شمال غربى العالم تكون السيادة للقوي والبقاء للأقوي. لا حساب إلا بالمال ولأجل المال. وما دام الغبى لا يريد المال فإنى أحق به منه . إنى أريده وأعرف كيف أزيده وأستزيده، يدعى الزهد والفلسفة والتصوف وهو أقرب قريب إلى الكفر والإلحاد. مأساته أنه لا يعرف ماذا يريد، أما أنا فأعرف. الفوضى هى السائدة وأعرف ما أريد. الموازين مختلة ولا أمل فى التقدم وأعرف ماأريد. لم يعد للعلم قيمة. تصدر الانتهازيون كل الموائد والولائم والمقاعد فلماذا أظل ساذجاً وأضيع من يدي فرصة العمر؟. لماذا أقلد الملائكة وأنا أعيش بين الشياطين؟. لا شك أن عبد الخالق شامت فى لأننى تخليت عن أسرتى حين كان من الميسور أن أقدم لها العون. ليته يتعامل معى بعقلى. أنا لم أتعمد هذا أبداً.لم أكن أشعر بذنب أو

جريمة حين نسيت أن لى أسرة بحاجة إلى بعض من مالى الوفير.لو تذكرت هذا لفعلت لهم ما يريدون. لكنى لم أتعمد . لم أشعر. لم أتذكر. هكذا كنت ومازلت أفكر . إنى أعرف ما أريد. أريد المال . المال فقط.

.....

يتنازع الحب الملائكة والشياطين يتبادلان الانتصارات والهزائم. يتحالفان أحياناً ليعاودا النزاع من جديد، وعلى ساحة الصراع تتناثر الألوان الخضراء والحمراء. تتصاعد الأرواح وتتهابط. يظلل السحر بردائه الغامض على كل الإرادات، فتكون البداية أو تكون النهاية.

.....

مجدي :

حلوة الوجه ثابتة النظرات. تتجسد الثقة فى عينيها ويتقاطر الصدق من كلماتها. تعيش فى واد وأعيش فى واد. يا إلهى هذا حرام. ما كان ينبغى إلا أن يجمعنا واد وحيد نسبح فى مياهه الرقراقة وننام على نجيله الأخضر. فى "بوفيه" الكلية أتناول الشاي ثم أدفع قروشى القليلة وأنصرف فى استحياء وعلى عجل. تجلس بين شلتها قمراً فى سمائه بين النجوم. تأكل الحلوي وتشرب المرطبات ثم تمنح النادل جنيهاً بعد دفع الحساب . تستقطب بهدوئها الواثق من حولها كل الأمزجة والاتجاهات والمستويات الاجتماعية. الكل يدور فى فلكها ويهيم بسحرها ويتيه

**فيما شف من غموضها الجليل. أما أنا فأكاد أعبدها. ياإلهى هذا حرام. لن أبوح بسرى لأحد. المال هو العقبة . أنا واثق من جدارتى بها ومن ندية عقلى لعقلها وثقافتى لثقافتها. واثق أيضاً أننى أستطيع أن أستأثر بحبها .. كل هذا صحيح لولا أن كانت العقبة . المال . كيف أجرؤ على الاقتراب من معبدها دون أن أتطهر ؟. وكيف أتطهر ولا ماء ؟.. ولما كان المال مائى وهوائى فلا حياة لى بدونه . يكفينى أن ضاعت منى حبيبتى دون أن أجرؤ على الاقتراب منها.**

ليكن فى هذه التجربة درس لى. تعجبنى رؤية حسين لمسألة المال. حين كنا نستذكر الدروس معاً فلأن كلا منا كان بحاجة إلى الآخر. جمعتنا زمالة تفتقر إلى الحب. أنا قادر على الإحساس بمثل هذه العاطفة وممارستها، أما هو فعاجز كل العجز عن ذلك، لكننا متفقان حول فكرة اقتناء المال. يجب الحصول عليه بأي ثمن. كم سببنا من اللعنات على أبوينا الفقيرين وكم سخرنا من نهايتيهما الحقيرتين. الأول ضربه المرض فأقعده بأحد أركان منزله والثانى ظل يتباهى بشرفه وأمانته حتى سرقوا خزانته ثم اكتفوا بطرده من عمله بلا مكافأة إشفاقاً عليه وعلى أسرته. لن أكرر تجربة أبى ولو اضطررت إلى السرقة. لن تضيع منى ثانى امرأة أحبها. هى لم تظهر بعد فى حياتى ولكنها آتية لا ريب .. الشرفاء ينهزمون . ماتت العدالة منذ زمن طويل. لن يسعفنى الوقت لممارسة الشرف والفضيلة حتى تبعث تلك العدالة من بعد طول رقادها.لا حب

ولا سعادة بلا مال. قد أتعلم بعد مرور السنوات أننى كنت مخطئاً، لكنى الآن مقتنع بذلك، لو لم أحقق رغباتى فى شبابى فمتى أحققها؟. سوف تمر الأعوام وتتطور أهدافى بتطور رؤيتى للحياة فيصبح المهم أقل أهمية والأقل أهمية لاضرورة له على الإطلاق .. وهكذا أظل أفقد وأتنازل حتى لا أرغب فى أي شئ، ثم أكون جاهزاً - من بعد ذلك - بكل غباء لاستقبال الموت .

أريد أن أكون صاحب عمل مستقل. لست أقل ذكاء من جهلاء ما بعد الحرب الذين تفننوا فى الاقتناص والاستحواذ . لا وقت لوظيفة أو إدخار. ذكاء الجهلاء أمدهم بالثقة فصاروا يشيرون بأصابعهم إلى كل ما يريدون. شهادتى الجامعية أمدتنى بالجبن وسحبت منى كل ما تبقى لدي من رصيد الثقة بنفسى وبمستقبلى . أثري عبد الخالق بضربة حظ عاطفية لا علاقة لها بتحول اقتصادي أو بهلوانى أو خلافهما . رجل طيب بحق. سأسرقه مع استعمال الرأفة. لن تؤثر مسروقاتى على ضخامة رصيده بالبنوك . يجب أن يعيش ويتركنى أعيش . ربما فكرت أن أرد إليه مسروقاته بعد أن أحقق هدفى فأعترف له وأكتسب محبته وغفران الله فى آن واحد. لو كان عبدالخالق شقيقى لما اضمرت له تلك الكراهية السوداء التى يضمرها له حسين . إنى أتقزز من نفسى وألعن حظى فى الحياة.

.....

قال الثعلب الداهية للصرصار المثقف :

- لماذا كان جاويش يحقد على عبد الخالق ؟

فأجابه :

- إنه صراع المصالح وأنت أقدر منى على فهم أصول هذه اللعبة.

.....

جاويش :

إيه .. دنيا . الهلفوت ابن الهلفوت يمتلك مصنعاً، وأنا المعلم جاويش أخرج من المولد بلا حمص. له فى ذلك حكم. فكرت فى الماضى أن أخدعه وأشتري منه سر التركيبة. كل تجاربى معه أثبتت أنه شيطان رجيم . يموت المعلم ولا يتعلم. حين رفض وتعلل بالمشاركة فى الربح شككت فى أنه يعرف السر . لو كان يعرفه لما تردد.

لكل إنسان ثمن. لم يخلق الرجل المتعفف عن السقوط. اعتقد آرتين الغبى أن عبد الخالق لم يفش السر لأنه أمين على أمواله فترك له مصنعه. لكن آرتين ليس غبياً. معنى هذا أن عبد الخالق ليس داهية فقط، وإنما كارثة حقيقية. مع ذلك فوجهه يوحى بالغلب والفقر والمسكنة. خسارة فيه النعمة. سبحانك يارب. تعطى الملك لمن تشاء . أنا المعلم جاويش أنتظر ساعة بمكتب السكرتير حتى أستطيع مقابلة هذا الهلفوت لأتوسل إليه أن يبيعنى بعض الخامات؟. آه منا يا أولاد العرب. آرتين كان أكثر منه رحمة . خرب بيتى عبد الخالق . الله يخرب

بيته . حتى مجدي الكلب يخوننى ويسرق لنفسه فقط، رغم أننا قرأنا الفاتحة معاً. ناس لا تعرف ربنا. سيدنا محمد كان تاجراً والتجارة شطارة والشطارة حلال.

أحسست أن حسين مخلوق من نفس عجينتى . من المؤكد أنه لا يفهم عبد الخالق. ملعون أبوهم كلهم. عيل صغير يدمرمستقبلى وأتفرج على نفسى وعليه؟. لا بد أن أتخلص منه بأية وسيلة ولو بقتله. طلع لى فى البخت على آخر الزمن وفى وقت غير مناسب. كل البهائم والحيوانات أصبحوا أغنياء فى هذا الزمن العجيب، بينما ازداد المعلم جاويش فقراً على يد الأسطى عبد الخالق الخبيث. يا سبحان الله انه يرتدي الآن بدلة وكرافته على أحدث موديل. شكله أصبح مختلفاً تماماً. كأنه إنسان آخر. الفلوس تغير شكل الوجه وشكل الضحكة وشكل التكشيرة. الفلوس ضاعت منى وتمرد علىّ التجار. سأقتل هذا الكلب ."الفلوس". وماذا تفعل لو كنت مكانه ؟. "الفلوس". أليست التجارة شطارة كما تقول؟. "الفلوس". انه لم يسرقك ولم يغتصب حقاً من حقوقك. أليس كذلك يامعلم جاويش يا سيد المعلمين ؟. قل الحقيقة يا معلم . أنت تكرهه وتحقد عليه ولا شئ غير ذلك. الفلوس يا معلم جاويش هى السبب .. "الفلوس" ولاشئ غيرها.

.....

فى العالم السفلى اجتمعت الأشباح والشياطين والعفاريت حول مائدة

غير مرئية وقرروا أن يتخذوا قرارات هامة تتعلق بمصالح ومصائر المخلوقات التى تعيش على سطح عالمهم. كان أهم هذه القرارات : "إلغاء أهمية كل ما هو مهم".

....

فهمى :

لم أر فى حياتى إنساناً أنبل وأرق من عبد الخالق بك. من كان يتصور أن هناك من يضحى بسبعة آلاف جنيه لموظف صغير يعمل عنده لمجرد إدخال الفرحة إلى قلبه وبلا أي مقابل ؟. ياهووه.لقد كاد يغمى على لحظة صرف الشيك، بل اننى غبت فعلاً عن الوعى عندما بدأ الصراف يحصى المبلغ أمامى لولا أن اتكأت على خطيبتى . كدنا نقع معاً على الأرض فقد كانت هى الأخري تعانى من حالة فرح هيستيرية ذهبت بإبتسامتها تماماً فأحالتها إلى ذعر شديد. ذعر من ماذا يا حبيبتى المسكينة ؟. لقد وجدنا المأوي.

منحة إلهية أشبه بالمعجزة. هل معنى السعادة هو الإغماء والهيستيريا ؟ .. لا إله إلا الله . أنا فهمى المسكين ابن بريقع الغلبان الذي لم يمسك بيده فى حياته مائتى جنيه دفعة واحدة، أمسك الآن بيدي سبعة آلاف جنيه ملكاً خالصاً لى .

إن الشك يساورنى أحياناً فى سلامة عقل عبد الخالق بك. أكاد أصدق ما يقوله عنه أخوه النذل حسين . إنى أكره هذا البنى آدم بشدة.

نظرات عينيه تفيض بالحقد والمرارة تجاه أخيه بل وتجاه الكون بأسره..

أنا أعرف أن مجدي أيضاً يسرق عبد الخالق لكنه لايحقد عليه، لذلك لست أحبه لكنى لست أكرهه كما أكره حسين. كلهم يخدعون الرجل الطيب، لكنهم أغبياء . يعتقدون أنه لا يدري شيئاً. أنا واثق أنه عارف لكنه يكتفى بالصمت لسبب يحيرنى ولست أعرفه. ربما يكون مبيتاً النية على الانتقام منهم. ربما يكون زاهداً فى المال الذي يتقاتلون من أجله. ربما يكون مجنوناً بالفعل. بالرغم من هذا فإنى أحب هذا الرجل من قلبى وأتمنى له سعادة الدنيا والآخرة. لقد منحنى سبعة آلاف جنيه فى لحظة. من يفعل هذا غير نبى ؟. وأين الأنبياء فى زمن العهر واستباحة الأموال والأعراض وشرعية البقاء للأقوي وسيادة الفوضى واللامعقول.

مكانك ليس هنا يا عبد الخالق بك. هؤلاء الناس لا يستحقون أن تعيش بينهم. أنت سعيد لأنك أسعدتنى وزوجتى . أنت تعيس لأن أحداً لا يسعدك بالرغم من كل هذا المال الذي تملكه. أنا واثق مما أقول، وإلا فإنك مجنون بالفعل .

الحقيقة أننى أميل - فى النهاية - إلى هذا الرأي . حقيقة يا عبد الخالق أنت مجنون. شفاك الله أيها الرجل الطيب.

.....

السيد :

عجيب أن اسمى "سيد " وأنا الخادم. سمعت من يقول إن خادم القوم

سيدهم، أو سيد القوم خادمهم. كلام فارغ. السيد هو السيد والخادم هو الخادم. لكن سيد هذا المكان سيد من نوع خاص. يعاملنى أحياناً كأنه الخادم وكأننى السيد. ثم يعاملنى -أنا وغيري- أحياناً أخري كما لو كان إلهاً. أنا لا أفهم شيئاً عن هذا الرجل الذي يهتم بقتل الصراصير - حيث لا صراصير- ويشرب الخمر ويغنى. أما هؤلاء الناس الذين يدورون من حوله فأمرهم غريب. أتعجب لنظرات عيونهم الغامضة. يبدو لى أن أحداً منهم لايحبه على الإطلاق باستثناء زوجته الطيبة التى تكاد تعبده ولا يعبأ بها.

أنا أحبه جداً مهما عاملنى بقسوة فى بعض الأحيان، فهو إنسان طيب القلب إلى أبعد الحدود. الذي يحيرنى دائماً هو وجهه التعس. دائماً حزين . حتى حين يسكر ويغيب عن الوعى فهو يغنى أغان حزينة. لو أنعم الله عليه بطفل ستنحل عقدته وينظر إلى الدنيا بعينين فرحتين . مسكين لن يجد من يحمل اسمه ويصون ثروته. سمعت دون قصد حواره مع زوجته فعرفت مأساته. لله فى خلقه شئون، فأنا أب لأربعة أبناء ولست أمتلك من الدنيا شيئاً .لا بد أن لجلالته حكمة فى توزيعه العجيب للمال والبنون بين الناس.

أنا لا أرضى أن يأخذ عبد الخالق بك أولادي ويعطينى "أمواله"، وهو بالتأكيد لايرضى أيضاً. لو أسلم أمره لله لارتاح كثيراً، فهذا هو المخرج الوحيد .. الإتكال على الله ولا شئ غير ذلك.

.....

عبد الخالق :

أيام الفقر كنت أشعر أن شرايين رأسى تكاد تنفجر كلما وقعت أسيراً للمقارنة. حين تجمعنى الظروف بأي ثري حتى لو لم أكن أعرفه أو يعرفنى، أرمق عينيه بتركيز شديد. لا أري فى بريقهما سوي تلك الثقة التى يصطنعها خيالى على الفور. تصبح الثقة أمراً واقعاً سواء أكانت حقيقة أم وهماً. لا يعنينى أن أفكر كيف أو لماذا استقرت فى عينيه، وإنما يعنينى وينهكنى ويكاد يقتلنى التساؤل لماذا كانت تلك الثقة من نصيبه ولم تكن من نصيبى. أحياناً أغبطه وأمنى النفس بالأمل أن يأتى اليوم الذي أشتري فيه لنفسى طمأنينته وأضع فى بريق عينى ثقته. أحياناً أخري تكوينى مشاعر اليأس وتدمر توازنى النفسى وتنسفه نسفاً فألعن الحظ والقدر ويصيبنى الرعب من حياة آتية محكوم علىّ فيها بالفشل والتخلف عن ملاحقة أهل الثقة والطمأنينة.

لا مفر من التسليم بأن كل مخلوق قد خلق ليبرع فى شئ ما، وأنا ماخلقت لكى أبرع فى جمع المال، ويقينى فى ذلك بغير حاجة إلى دليل، أما فيم خلقت لأبرع فهذا مالم أعرفه حتى الآن. لكن هناك حداً معيناً من القدرة المالية ينبغى أن أبلغه وما أنا بقادر على ذلك. لست أفكر فى الحد الأدنى فأنا آكل وأكتسى وأنام ولكنى بشر. أعيش بعد انقضاء أزمنة الملائكة والأنبياء ونزول الوحى. أري غيري يمارس حياته بثقة المالك لما يتجاوز الحد الأدنى والأوسط والأعلى وكأن مشكلة المال لا

تعنيه. تجاوزه لمأساتها جاء بالصدفة. حتى لو جاء عن جهد وعرق فإنها أيضاً مصادفة، فكثيرون بذلوا الجهد والعرق والعمر كله ولم يتجاوزوا الحد الأدنى . بعمري أفتدي من يقودني إلى مفاتيح لغز المال السحري . قيل عن أولياء الله انهم كانوا جميعاً أغنياء من قبل أن يشرح آينشتين نظريته فى النسبية. قناعتهم جعلت منهم أثرياء ولو نظرت إليهم عيون زماننا ما رأت سوى فقر مدقع وحياة دون الكفاف. أنا لا أعرف كيف الوصول إلى قناعتهم بل ولست أريد. غيري يريد الوصول إليها فينجح وغيري يريد فيفشل. عودتى الدائمة إلى الغيرية وتذبذبى بين ما بيدي وما بأيدي الغير يصيبانى برعب هائل. تستهوينى قصص قارون وداود وسليمان وأكره من قلبى قصص الشيوعيين عن الأثرياء فكلهم - عندهم - لصوص ومصاصو دماء، فماذا لو ورثت عن أبى ثروة كبيرة؟ .. هل كنت أقتدي بقارون فأنسبها إلى علم من عندي أم أتنازل عنها للفقراء أم أستمتع بها فى حدود الأوامر والنواهى الإلهية أم تقتلنى الحيرة فلا أستطيع أن أفعل شيئاً؟

اليوم وقد حدثت المعجزة، لا بد أن ألتمس العذر لكل هؤلاء الأوغاد المساكين الذين مازالوا يقارنون بينى وبين أنفسهم. آه لو علموا أننى مازلت حتى اليوم أفتقر إلى الطمأنينة والثقة اللتين كنت أراهما بعين اليقين فى عيون الأثرياء الذين أعرفهم والذين لا أعرفهم. لو اهتدوا مثلما اهتديت من قبل إلى فكرة المالك الأصلى والوحيد للمال لما كان هذا

حالهم، فمجرد الاهتداء إلى الفكرة شئ وممارسة مدلولها شئ آخر ..
وعلى من يصر على المقارنة أن يبدي اعتراضه ويعلنه، وعلى من
يعترض أن يتحدي الكون ويعمل على تغبيره وفق مشيئته وهواه، وما
أقرب المسافة إلى مستشفى الأمراض العقلية لكل من تسول له نفسه
القيام بمثل هذه المغامرة الجنونية .

.....

قال عفريت الموت لملاك الحياة إن العبرة بالنهاية وليست بالبداية،
فامنح الوجود ماشئت من مخلوقات وهبها ماشئت من سعادة وفرح أو
تعاسة وشقاء .. وأنا وحدي كفيل بالنهاية

## -٣٠-

عاد سليم إلى زوجته بصحة جيدة، عازماً على العودة إلى عمله
القديم. صلت لله كثيراً تشكره وتحمده، وبعد أسبوع من عودته مات.

صدقت أم عبدالخالق أن زوجها قدمات. إكتفت بسماع القرآن
والإكثار من الصلاة. فى البداية بكت كثيراً بصوت غير مسموع. شيئاً
فشيئاً قل البكاء ثم التزمت الصمت. لم تذهلها المفاجأة. بدت وكأنها

كانت تعلم بقرب موته رغم استرداده لصحته. أما عبد الخالق فلم يصدق أنه مات. أنهك نفسه بالتفكير فى المصادفات التى امتلأت بها حياته. تساءل هل الموت أحد هذه المصادفات أم أنه شئ آخر. تعجب كيف لم تمت مديحة ولم يمت كل من حسين ونعيم ومجدي وجاويش وسمير. راح يفتش عن أسرار الموت فى أحاديث سليم عن القدر والمكتوب. كيف اختطف منه هذا الرجل العبقري فى لحظة فراحت حيويته وقدرته على الحوار مع الإنس والجن فى أسرار الحياة. بالفندق اليونانى لم يكن مصرياً فقط وهو يحاور الغرباء عن لغته ودينه، والدليل على ذلك أنه كان يستخدم يديه أكثر من استخدامه للكلمات الأجنبية القليلة التى كان يعرفها. رغم ذلك فقد استطاع أن يتبادل معهم الحديث وجعلهم يضحكون. عبدالخالق كان يتهيب الحديث مع الغرباء. بقى له تهيبه وراح منه سليم صانع السعادة فى أي مكان وتحت أية ظروف.

الآن ماذا تعنى عنده جداول السعادة أمام الموت ؟. نسى أن يضع هذه الكلمة فى الحسبان عند توزيعه للنسب المئوية على الثراء والصحة وراحة البال ووو. كان ينبغى عليه أن يضع عدد سنوات العمر المطلوبة وعدد سنوات العمر المتوقعة والمنصرمة. لو فعل هذا لازدادت الجداول تعقيداً ولما توصل إلى شئ.

ماذا لو وضع جدول سعادة لكل من المحيطين به ؟ .. عبث.

ماذا لو وضع جدول سعادة لأبيه بعد أن رحل ؟ . ما الفائدة؟.

وماذا لو وضع لنفسه جدول سعادة ؟ ..

.....

قال الثعلب :

- أنا صاحب سر الغنيمة . أنا صاحب الدعوة . أنا الذي يعرف كل شئ عن أي شئ .

## -٣١-

ميت والعالم يكتظ بالأحياء . يحبون ويرقصون يعيشون دون انتظار. لا يشعرون بالزمن. حتى حين يموتون فإنهم لا يشعرون بالموت. ميت أنا وأمنياتى، لا أعرف أسباباً ولا نتائج. لا أجد معنى لتواجدي فى مكان لم أختره على هذا الكوكب الكروي الصغير لزمان لست أعرفه ولأسباب لست أفهمها. أريد أن أجري ملايين الأميال بأقصى ما أستطيع من سرعة حتى أجد المعنى أو أموت.

هناك قوة خفية تتعمد إذلالى وتعذيبى . تقف منى موقفاً متجبراً. سوف أرسل خطاباً إلى أبى على عنوان منزله أسأله أن يجيبنى عن أسئلتى المحيرة. أنا أعلم أنه مات مصادفة وأنه لن يجيبنى. لكنى

سأكتب الآن منتظراً الإجابة . ربما تلقيتها بعد زمان طويل .. ومهما انتظرت فالحاجز بينى وبين أبى الذي مات حاجز هلامى بيدي أن أحيله إلى سد منيع وبيدي أن أزيد من هلاميته فأبددها ليصير واقعاً وحقيقة..

الموت اصطلاح لفظى كان من الممكن أن يستبدل به اصطلاح آخر، فالألفاظ وسيلة كالوريقات المطبوعة، وكل المعانى قد اخترعها أناس يرتدون العباءات المثقوبة بما فيها معناي المجهول .

لقد اختفى أبى بالصدفة وسيختفى طويلاً لزمن ما، لكنه لم يمت بمقياس زمنى آخر لا يخل بالمقاييس المختلة أصلاً لكل الأشياء . سأسأله فى خطابى لماذا مات. وبعد عدة أسطر سأسأله كيف حملت زوجتى بالصدفة .. ثم سأواصل توجيه آلاف الأسئلة إليه عن سمير وعن صديقه المنتحر وشقيقى حسين وصراع الذئاب الضارية على الوريقات المطبوعة التى أمتلكها دون رغبة مخلصة منى فى هذه الملكية ودون حق لهم فى الإصطراع عليها .. وفى ذيل الأسئلة سيأتى سؤال تافه - لم تعد تهمنى إجابته - عن مديحة العائدة ومعادلة آرتين ومطاردة الكلاب والصراصير والعفاريت والعباءة المثقوبة من منتصف الخلف والدرع الذي ألقيت به فى قارعة الطريق .. ثم أقول له فى النهاية :

" لقد كان منخارك طويلاً يا أبى العزيز "..

لكنى أبكى بحرقة فلماذا ؟

أمسك عبد الخالق بقلم وورقة وكتب ....

أبى العزيز .. لعلك أول إنسان عرفت كيف أحبه بصدق. إنى أريد استشارتك فى مسألة دونها النهاية الحتمية لحياتى المضطربة. لقد فكرت كثيراً أن أومن بأن ميرفت ستنجب لى مولوداً من صلبى وأن أحداً لم يمسسها غيري وأنها لم تدع كذباً أنها حامل منى . فكرت أن الوليد هو الأمل المشرق الذي سيبدد بوجوده كل ظلمات حياتى الميتة. فكرت أن أغفر لمديحة زلتها وأن أصفح عنها وأعيدها إلى زوجها وأكسب رضاه بالكيفية التى تجبره على التخلى عن حقده غير المبرر. أن أعطى حسين ما يريده من مال ليبدأ به حياة جديدة كيفما يشاء . أن أغفر لمجدي أخطاءه وأعلمه كيف تكون الأمانة شارحاً له تجربتى مع آرتين، ثم أبقيه ليعمل معى بروح جديدة وخلق جديد. أن أصلح ما بينى وبين جاويش وأساعده حتى يقف على قدميه من جديد. أن أعيد سمير إلى صوابه ليوائم بين فنه ودينه .. ثم لا أشير له من قريب أو بعيد إلى شكوك قد تفسد صداقتنا أو ظنون قد تقتل محبتنا. أن أتنازل عن معظم وريقاتى

لليتامى والمساكين والفقراء . أن يكون اسم الوليد "ميناس" لو كان ذكراً و "مديحة" لو كان انثى. أن أتخلى عن البحث عن الغائب واتجه إلى البحث عن الموجود.

فكرت بأن السكينة ستعرف طريقها إلى نفسى المنزعجة وقلبى الحائر. سأتعلم كيف أفرح وأحب . سأتخلى عن حرصى واحتراسى فى مواجهة الحياة. سأكون إنساناً مطمئناً لا تفارق وجهه الابتسامة. سأعود إلى نسبة المال إلى صاحبه الحقيقى . سأفهم المعنى الحقيقى للموت والمعنى الحقيقى للحياة.

فكرت فى كل هذا ياأبى العزيز لكنى لم أتخذ قراراً بعد .. لهذا رأيت أن أكتب إليك سائلاً المشورة، وسوف أرسل إليك هذا الخطاب مسجلاً بعلم الوصول .. وأنا فى انتظار ردك .

ابنك الحبيب

عبد الخالق سليم

ذهب بعربته إلى مكتب البريد . على الباب أشعل سيجارة . نظر حوله فوجد بالوعة ذات غطاء به فتحات طولية عديدة. انحنى إليها بهدوء . كانت معالم وجهه مجهولة الهوية. ثم استدار بطريقة آلية عائداً إلى بيته. جلس بجوار التليفون وأجري سبع مكالمات متعاقبة ثم تجرع ما يقرب من نصف زجاجة ويسكى دفعة واحدة وأخذ يغنى، ثم أمر "سيد" أن يعد المائدة لحفل عشاء كبير، بحيث تتسع لتسعة أفراد أو أكثر .

عجزت ميرفت عن فهم أي شئ منذ استقبل عبد الخالق نبأ حملها بالصمت والفتور. دب الشك فى قلبها وارتابت فى قوي عبد الخالق العقلية. تبدد اهتمامها بجسدها. فى البداية تسللت إليها مشاعر الأمومة فى هدوء ناعم، ثم ما لبثت أن اجتاحتها بقوة كاسحة. شعرت بالخوف على حياتها وحياة زوجها. هرعت إلى أمه تسألها المعيشة معهما. تمسكت الأم بمنزلها القديم . توسلت إليها ميرفت أن تأتى ولو لفترة محددة. حذرتها من التخلى عن ابنها الآخذة حاله فى التدهور . قالت لها بصراحة واثقة :

- ابنك سوف يجن .

بكت الأم . اعتقدت أنه حزين على وفاة أبيه فقط، وأنها حالة طارئة محكوم عليها بالموت من الزمن. استجابت فى النهاية تلبية لنداء الأمومة الفطري، وبالرغم من كل ما حدث فإن ميرفت لم يخطر ببالها للحظة واحدة أن عبد الخالق يشك فيها. كل ما فى الأمر أنها كانت تعتقد أنها تعاشر إنساناً غير طبيعى شديد الحساسية فائق العدمية. لكنها - مع

ذلك - كانت تكتفى بحبه وعشقه ولا تعبأ بشئ آخر. تنبهت اليوم إلى خطورة الحالة، فعبد الخالق أدمن السكر والعبث بكل الأشياء وعلى رأسها حياته.

كان جرس الإنذار دائم الرنين فى أذنيها أن انقذي زوجك الذي فقد الإحساس بحياته قيمة ومعنى. استرجعت مع أمه شريط حياته منذ طفولته إلى أن تزوج منها. أحبته طفلاً وصبياً وشاباً. شعرت بالخشوع أمام تجربته العريضة. تألمت لآلامه وبكت كثيراً مع أمه وراحا يعاملانه كطفل صغير ... إلى أن جاء يوم ٢٢ سبتمبر، حين فوجئت ميرفت بأبيها يحضر من القاهرة تلبية لدعوة عبد الخالق . ثم تبعه ستة رجال وامرأة على فترات متتابعة حيث أعد "سيد" مائدة العشاء .

سارعت إلى الأم تسألها ما الخبر فوجدتها نائمة. لم تكن قادرة على سؤال عبد الخالق عن أي شئ فقد كان يكتفى بالخمر ولا يخاطبها إطلاقاً. لكنها قررت أن تفهم ماذا يدور بمنزلها فسألته

- ما هذا الذي يحدث ؟

أجاب بضحكة طفل .

- وليمة عشاء.

- لماذا ؟ . ماهى المناسبة ؟

- سأحكى لهم قصة البغل .

سارع إلى زجاجة الخمر . استوقفته بهلع .

- كفى .. أرجوك .. انك تترنح فى مشيتك.

- وأنت على رأس قائمة المدعوين .

انصرفت غاضبة مسيطرة على رغبتها الشديدة فى البكاء . كانت تشعر بكارثة مجهولة على وشك الوقوع فى تلك الليلة. استسلمت لأحزانها وتمسكت بالصبر.

... ثم رفع الستار عن المشهد الختامى.

.....

(يجلس عبد الخالق إلى رأس المائدة . يرحب بضيوفه . على وجه كل منهم تعبير شديد الخصوصية، فضلاً عن تعبير عمومى يسيطر على وجوههم جميعاً هو تعبير الدهشة من هذا الاجتماع المفاجئ الذي ألح عليهم جميعاً أن يحضروه. عبد الخالق يرفع كأسه قائلاً بلهجة ذات مغزي)

عبد الخالق - اليوم أول الخريف . اشربوا معى نخب حياة سعيدة تبدأ اليوم وتنتهى اليوم.

(يبدو أن أحداً لم يفهم معنى ما قال. ترتفع الكؤوس . بعض الأيدي ترتعش وبعضها ثابتة واثقة).

مراد (بلهجة رجل الأعمال ) - النقاط على الحروف يا عبد الخالق بك من فضلك .

عبد الخالق - (ساخراً) وضعت هذا فى حسبانى، ولكن بعد أن

أحكى لكم قصة البغل التى وعدتكم بها.

حسين - (غاضباً) وهل هذا وقت قصص ؟

عبد الخالق - ستندم كثيراً لو فاتتك هذه الرواية.

حسين - (متأففاً) عندي مشاكل خطيرة بالشركة أريد إطلاعك عليها الليلة.

عبد الخالق - (السكر واضح فى لهجته) من ناحية الشركة لاتنع هما فربما قررت بيعها الليلة.

(بينما يسيطر الذهول على الجميع تتناثر أقوال تعبر عن الدهشة وأخري عن الاستنكار)

حسين - (محدثاً نفسه ) يبدو أنه جن بالفعل، ويريد أن نجن مثله.

عبد الخالق - (مسيطراً على إدارة الاجتماع) الهدوء أرجوكم . لقد دعوتكم لنتشاور معاً بعد سماع الرواية فربما وجدنا حلاً أفضل من البيع.

حسين - (متذرعاً بالصبر) تفضل ياسيدي . أحك حكايتك.

عبدالخالق - (بهدوء قاتل) الرواية التى قرأتها من تأليف أديب غربى معروف وقد نقلتها السينما المصرية عدة مرات بعدة معالجات حتى ملها الناس تماماً ومع هذا فسألخصها لكم بأمانة.

مجدي - (مندفعاً، محاولاً جس النبض) كيف أدعى لسماع رواية وأنا مفصول بأمر حسين ؟

فهمى - (منتهزاً الفرصة بأدب ) انتظر يا أستاذ مجدي فأنا أيضاً منفصول مثلك .

جاويش - (بأسلوب البلطجى الساخر) يجوز أن سعادة البيه يريد اعطاءنا موعظة.

عبد الخالق - العفو يا معلم .. ياأخ جاويش .. أنا مجرد تلميذ من تلامذتك.

(يقف عبد الخالق مترنحاً فتسكب أمامه زجاجة بها خمر . يزيحها بيده فتسقط على الأرض وتنكسر.

يحضر "سيد" ليجمع زجاجها المتناثر . يدفعه عبد الخالق بيده مشيراً إليه بالابتعاد من أمامه. تبدو الجدية التامة ممتزجة بعلامات السكر على وجهه. يبدأ فى سرد رواية قريبة الشبه من روايته معهم. يفجأ الجميع - من خلال تفهمهم لمغزي الأحداث - بأنه على دراية تامة بكل ما تحاك حوله من مؤامرات كانوا يستبعدون درايته بها. يبدو الرعب على وجه مجدي والانزعاج والغيظ على وجه حسين . البلاهة والغباء على وجه نعيم . القرف على وجه جاويش. الحزن الشديد على وجه مديحة. الذهول على وجه ميرفت التى لا تكف عن النظر إلى مديحة دون مخاطبتها. علامات التركيز والاهتمام والتأمل على وجه مراد. الفرحة الشديدة على وجه فهمى لمجرد عودة عبد الخالق ووجوده فى حضرته. الهدوء التام على وجه المهندس اسماعيل ... حين ينهى عبد الخالق

الرواية بعودة البطل إلى وطنه يجلس منهكاً ويشرب كأساً أخري . الجميع يهمهمون بكلمات غير واضحة وقد غرقوا جميعاً فى لجة الحيرة).

عبدالخالق - انتهت الرواية ياحضرات.

(تزداد الهمهمات ثم تخفت تدريجياً ويسود الصمت الجميع).

نعيم - (منافقاً) رواية جميلة جداً يا أستاذ.

حسين - (محيراً) لكن بطل الرواية لم يبع شركته.

عبد الخالق - أما أنا فسأبيعها يا أستاذ (ثم بقوة مفاجئة) ولو سمحت هات التوكيل.

حسين - (يفتح فمه دهشة ثم يتردد قليلاً).

عبد الخالق - (بعنف وشدة) أقول لك هات التوكيل . ألم تسمعنى ؟

حسين - (يتقدم نحوه وقد أصفر وجهه بفعل المفاجأة. يخرج ورقة من حافظته ويعطيها له).

عبدالخالق - لولا دروسك يا أستاذ نعيم لما استطعت قراءة هذه الرواية. لقد أعددت لك الليلة مفاجأة كبري.

نعيم - (متذللاً) ربنا يكرمك يا سعادة البيه.

مراد - لكن الرواية ناقصة يا عبد الخالق بك .. مبتورة.

عبد الخالق - (بحسرة وسخرية) دلنى على شئ كامل.

مراد - أقصد ماذا فعل البطل بعد عودته مع اللص والمنافق والإنتهازي والزوجة والعشيق والشقيق والحبيبة والصديق؟. لقد توقفت

فى روايتك عند عودته إلى خصومه فقط، فماذا فعل بهم ؟.

عبد الخالق - (ينظر إلى ميرفت بتركيز شديد وتبدو خائفة منه تماماً) هذا ماسوف أحكيه لكم بعد خمس دقائق. اسمحوا لى أولاً أن أصعد إلى غرفة مكتبى لإحضار بعض الأوراق الهامة. (يصعد مترنحاً. مجدي يرتجف خوفاً على مستقبله وينظر بعين الغدر والحقد إلى حسين. الصمت يسيطر على المكان. بعد اختفاء عبد الخالق مباشرة يظهر سمير فجأة بالبهو وسط دهشة الجميع ويبدو سعيداً جداً).

.....

الصمت المتحفز يجثم على الموقف.

## -٣٤-

"لأن العمر فصول .. فصول تأتى وتروح فصول".

"فحين تكون ربيعاً تشعرنى بخريف .. وحين تكون شتاء تأتينى بخريف ".

" وحين يجئ الصيف يجئ .. إيذاناً بخريف ".

" ولأنى كما قلت ملول .. والإنسان ملول".

فلقد أسدلت ستاراً عملاقاً يحجب عنى النور ..".

" وحين يذوب زمانى تهذي الكلمات :".

"أحب النور .. أحب النور ".

أنا عبد الخالق سليم. أنا مثلى الأعلى والأدنى . ولدت فى حارة ضيقة لأموت فى قصر فسيح. بدأت حياتى محروماً من المال وسيلة أقضى بها أشد حاجاتى ضرورة وأولها الحب. أنهى حياتى ثرياً متخماً بالمال لا أبغى حاجة أقضيها به. أمضيت حياتى أبحث عن معانٍ مجهولة دون جدوي. ينتظرنى الآن فى البهو بعض المخلوقات البشرية التى نجحت فى العثور على معانٍ محددة، فلا أنا سعدت بفشلى فى العثور على ما أبحث عنه، ولاهم سعدوا بما توهموا أنهم عثروا عليه .. وكلنا منتظرون معاً.

لكنهم سوف ينتظروننى طويلاً مثلما كان من المفترض أن أنتظر رد أبى على رسالتى التى ألقيتها فى البالوعة أمام مكتب البريد.ينبغى الآن أن ألف درعى فى عباءتى المثقوبة من منتصف الخلف، وأن أضع بداخل اللفافة كلباً وصرصوراً وعفريتاً كما وضع سيدنا نوح عينات من المخلوقات فى سفينته. ثم ألقى بلفافتى فى الفضاء لترتفع إلى أعلا حتى تختفى . سوف تعجز عيون الناس عن متابعة أشيائى بعد ذلك، وسوف تغمرنى سعادة لاحد لها فى عالمى الخاص بعيداً عن هذه العيون. مهزلة ما كان ينبغى أن أعيشها لتكون عبرة للأموات والأحياء. كان



الصحيح أن تضرب كل العيون بمدفع رشاش تتسع خزانته للبلايين من الطلقات. مع هذا فأنا فى كامل قواي العقلية، أقتع بإرادة حديدية أتحدي بها أقوي الإرادات بين المبصرين والعميان، الأحياء منهم والأموات. أنا أقوي الأقوياء بما يرونه ضعفاً فى.

ملعقة صغيرة من السم. كوب صغير من الماء . منضدة . مكتب. أوراق وأقلام. دولاب. غرفة. جدران. خطاب يبدو أنه من أحد المستوردين، لم يفتح منذ عدة أيام. لا فائدة من فتحه. ينبغى أن يظل على حالته. ربما كان من أبى رداً على خطابى الأخير . لكننى ألقيته فى البالوعة. لابأس . لعل هناك اتصال غيبى غامض بين خطوط المجاري الأرضية العفنة المكتظة بالصراصير وبين البشر الذين يمشون باعتداد فوق هذه الأرض. لم لايكون هذا الخطاب من أبى ؟ ..

لماذا لا أرغب فى فتحه حسماً للقضية ؟. لن أفتحه. لست بحاجة إلى فتحه فأنا صاحب عينين نفاذتين لاتتأثران بطلقات الرصاص، هأنا أقرأ وأنا متمتع بكامل قواي النفسية والعقلية.

يقول أبى إننى لم أكتب إليه سوي الحقيقة . متفائل مع أنه ميت. عجيب أمر هذه المخلوقات الميتة. عظام تتفاءل، أتربة تري النور فى الظلام بعيون لايدرك أحد سرها الغامض.

إذن فأنت تقول فى الحياة غزلاً لأول مرة.

تذوب إعجاباً بكلمات أبيك فى حبها بكل ماتجئ به من أعاصير

وأنواء.

عاش ومات فى ركنه المقدس .. يحبها . يحبها . يحبها.

عبد الخالق يابن سليم . لا تفتح الخطاب وإلا شربت السم . لو شربته ستموت.

## -٣٥-

خرج مجدي من الغرفة وبيده سكين دامية. صاح فى هيستيرية.

- قتلته.

أمسك سمير به بعنف وصاح به كمجنون.

- من هو الذي قتلته ؟.. تكلم يا مجنون.

- لن أتكلم . استدعوا البوليس .

تبادل جاويش ونعيم نظرات الرعب والفزع. كانا أشبه بفأري سفينة أوشكت على الغرق. قال نعيم.

- ما سبب بقائنا هنا يا معلم جاويش ؟

- أنا خارج معك .

ودبت الفوضى فى المكان.

آمن القديس فرانسيس بقرابته التطورية للكائنات غير البشرية وبارتباطه الوجدانى الشديد بجميع الأحياء، فنادي بوجدان دينى عميق قائلاً :

- أخى الطير .

ولما كان القديس قديساً فإنه لم ينكر وجود الخالق الأعظم لكل الأحياء والأموات، ولهذا فقد بادلت الحشرات والحيوانات والطيور عبد الخالق نفس مشاعر القديس فرانسيس الأخوية، لاسيما وأنها قد تعايشت معه مراحل حياته صعوداً وهبوطاً فأدركت أن لها دوراً هاماً ينبغى أن تضطلع به فى استشراف نهايته المرتقبة.

كان الثعلب أول من تنبه إلى ضرورة القيام بهذا الدور فبادر إلى دعوتهم لحفل كبير يجتمعون فيه ليناقشوا هذه المسألة من وجهة نظرهم، ومن هنا كان له حق رئاسة الحفل وقيادته، وهذا ما سيتضح أنه لم يرض جميع الأطراف. وكان قد نما إلى علم الثعلب أن هناك غنيمة كبري قد استأثر بها أحد الحيوانات لكنه تركها فى النهاية نهباً لبلطجية الغابة دون

سبب معلوم. البعض قال انه تقاعس منه وضعف وقلة حيلة، والبعض قال انه زهد ويأس واستغناء أو تأله، والبعض قال أنها إرادة الخالق فحسب. وقد رأي الثعلب حسماً للأمر أن يدعو بعض المخلوقات البشرية لحضور الحفل كمجرد شهود للإستفتاء الخطير، دون الحاجة إلى الإستنارة بآرائهم البشرية حول كيفية الاستيلاء على هذه الغنيمة التى ليس لها صاحب.

وقف الثعلب متصدراً المائدة الكبيرة وأمامه العديد من الميكروفونات الممثلة للإذاعات المختلفة والتليفزيون، حيث حرصت هذه الأجهزة الإعلامية الضخمة على تسجيل الحدث التاريخى العظيم الذي يمتزج فيه الفكر الإنسانى بالفكر الحيوانى إيذاناً ببزوغ عصر جديد سوف يعرف بعصر نهضة الكون. ذلك العصر الذي سوف تمتزج فيه كل الفلسفات والمذاهب والأديان لتصاغ بشكل جوهري جديد يضمن تحقيق السعادة للجماد والحيوان والإنسان فى آن واحد.

لم يفزع الناس من هذا المشهد المثير للخوف والدهشة ولم يتعجبوا، فقد صاروا يؤمنون بعودة المعجزات. تتابعت أضواء آلات التصوير فى السقوط بصفة مركزة على المقاعد العديدة بالمائدة الرئيسية حيث يجلس القرموط والصرصار والكلب والعفريت والنمر والقرد والبومة والبغل. أمامهم وضعت أكواب المشروبات ومنافض السجائر. قال الثعلب :

- سأحكى لكم قصة.

فوجئ الناس بالحيوانات والحشرات تصفق تصفيقاً شديداً متواصلاً،

لكنهم ما لبثوا أن امتصوا هذه المفاجأة لما تذكروا إيمانهم بعودة المعجزات. وبعد أن انتهت عملية الامتصاص وجدوا أنه من الطبيعى أن يشاركوا الحيوانات والحشرات فى التصفيق، لكنهم حين حاولوا ذلك اكتشفوا أنهم بلا أيدي فلم يفزعوا ولم يرتعدوا خوفاً بل استسلموا بلا تفكير لما وقع لهم، وعم الصمت قاعة الاحتفال باستثناء ضجيج الحيوانات والحشرات.

تساءل أحدهم عن سبب الحفل أو مناسبته فأجابه جاره بنباح متواصل ذهل له المتسائل فى بادئ الأمر. بعد قليل انتفت كل أسباب المفاجأة والذهول والتعجب حين أدرك الجميع أن الامتزاج قد تم وأنهم لا يختلفون فى كثير أو قليل عن زملائهم الجالسين إلى مائدة الحفل الرئيسية. قال الثعلب :

- أرجوكم الهدوء، فأمامنا صيد ثمين .. غنيمة يقال أن ليس لها صاحب، وإن كنت واثقاً أنه بيننا.

تذرع الناس - المزيج - بالصمت انتظاراً لنهاية الحكاية .

الغنيمة :

سأل أحدهم بعد أن تلفت حوله يميناً ويساراً.

- أين الحمار ؟

فسأل آخر .

- وأين الأسد وزوجته ؟

اندفع البغل بلا روية كما لو كان سكراناً فاصطدم ببعض المقاعد وأثار

ضجيجاً وفوضى . قال للثعلب بسخرية :

- هل تنوون اقتسام الغنيمة قبل الاهتداء إلى صاحبها الحقيقى؟

تعالت هتافات من أحد أركان القاعة تقول :

- يحيا العدل .. يحيا العدل.

ابتسم الثعلب وقال بهدوء الواثق من حنكته.

- اصبروا يا أعزائى الحشرات والحيوانات .. كل شئ يأتى بالصبر .

صاح نمر من بين الجالسين بغضب.

- ليس لدينا وقت للحكى .. نريد اقتسام الغنيمة.

أخرج قرموط رأسه من بركة ماء خصصت لإقامته بالحفل وقال :

- نأخذ الأصوات.

ساد هرج امتزجت فيه أصوات الآدميين والحيوانات والحشرات - التى امتزجت من قبل - ممن يجلسون المائدة الرئيسية وإلى الموائد الخلفية . شعر الثعلب بالحرج لوهلة ثم ما لبث أن حسم الموقف قائلاً :

- حسن .. لن أحكى القصة الآن. لكن قبل القسمة أريد أن أستفسر عن بعض المعلومات الهامة من كل حيوان وحشرة منكم.

صاح الجميع بصوت واحد - ممتزج - متوحد.

- لامانع.

سأل الثعلب بطيبة وحنان .

- هل تقبلون جميعاً أن يمثلكم هؤلاء الجالسون بالمائدة الرئيسية ؟

أجاب الجميع بنفس الصوت.

- نعم نقبل .

.....

القرموط :

قال القرموط للثعلب :

- أرجو اختصار الحوار حتى أستطيع العودة بسرعة إلى بركتى وإلا فقدت حياتى.

ابتسم الثعلب ابتسامة الخبير بالعلاقات الإنسانية الحيوانية العامة.

- أنا خادمك وخادم الجميع .. ما اسمك ؟

- قرموط ابن قرموط.

- وظيفتك.

- مأكول.

- بائعك.

- البربري.

- علاقتك به.

- احترمه بالرغم من سواد جلدي.

- هل تلتمس العذر لابنته مديحة فيما فعلت؟

- عجيبة .. كيف علمت بهذه التفاصيل ؟

- لا تجب عن سؤالى بسؤال .. هل تلتمس ..؟

- لا

- إذن فهل كنت تتمنى لها حياة تعسة مع عامل فقير ؟

- كنت أحلم أن تأكلنى مع حبيبها .

- فمن الذي أكلك إذن ؟

- لم يأكلنى أحد حتى الآن .

- وما رأيك لو نقلناك من البركة إلى البحر ؟

- أموت .

- هل تدرك المعنى الحقيقى للموت؟

- لا ، ولست أهتم بإدراكه.

- حين نوزع الغنيمة على الثمانية كم تطمع أن يكون نصيبك منها ؟.

- الثمن طبعاً.

- ألا تراعى اختلاف الجهد والذكاء وكذلك الحظ أيضاً ؟

بدأ القرموط يجد صعوبة فى التنفس .. كاد يختنق.

- لست أطالب إلا بالعدل.

- شكراً ياعزيزي القرموط .. عد إلى بركتك.

.....

القرد :

قال الثعلب للقرد بحرص واحتراس.

- إنى أعلم أنك صاحب روح رياضية عالية، ولذا أتوقع أن تجيبنى بلا تحرج.

انتفخت أوداج القرد. كانت تبدو عليه دلائل الغيرة من رئاسة الثعلب وقيادته وزعامته. قفز قفزتين فى الهواء ثم مشى بيديه على المائدة رافعاً رجليه هازاً ذيله يميناً ويساراً، فانقلبت بعض الأطباق وتناثرت المأكولات والمشروبات على المائدة. وقف فجأة وقال بغضب.

- بأي حق توجه إلينا هذه الأسئلة ؟

- بصفتى صاحب الدعوة والمرشد إلى الغنيمة.

- الغنيمة ملك لنا جميعاً ولا يحق لك التحكم فينا.

- لو كنت تعرف ما أعرف لما خلقك الله قرداً، وعموماً فأنا مستعد للتنازل عن مكانى لك لو وافق الحاضرون.

صاح الجميع بصوتهم "الممتزج" الموحد الجديد الذي سيبشر بعصر نهضة الكون قائلين :

- لا نقبل أن يقودنا قرد .

فصاح الثعلب بزهو شديد.

- إذن اهتفوا معى .. يسقط القرد.

ردد الجميع معه الهتاف ثلاث مرات . شعر القرد بالخزي . عاد إلى مقعده. توجه إليه الثعلب قائلاً بشماتة.

- ليس من حقك الجلوس قبل الإجابة عن استفساراتى. تقدم إلى

المنصة وإلا حرمت من نصيبك فى الغنيمة.

تقدم القرد إلى المنصة متخاذلاً فقال الثعلب

- اهتفوا معى .. يعيش الثعلب رئيساً وقائداً وزعيماً ومعلماً.

ردد الجميع معه الهتاف ثلاث مرات. استدار مزهواً إلى القرد وسأله.

- بلغنا أنك تعاشر قردة كثيرات غير قردتك .. هل تنكر هذا ؟

- هذه حياتى الخاصة ولا شأن لأحد بها.

- كما بلغنا أنك قتلت من أجل قردة .. هل هذا صحيح ؟

- أهو استفتاء أم تحقيق جنائى ؟

- بل مجرد جدل ودي سنصل فى نهايته إلى نتيجة مفيدة بإذن الله.

- نعم لقد عاشرت قردة كثيرات كما قتلت قرداً رأيته يعاشر قردتى الأساسية.

- واضح أنك عدو للعدالة .. هل تحب قردتك الأصلية ؟

- بالطبع .

- فكيف تعاشر غيرها ؟

- الحب شئ والجنس شئ آخر.

- إذن فأنت حيوان حقيقى يصعب امتزاجك مادمت قادراً على معاشرة حيوان دون أن تحبه.

- لست الحيوان الوحيد الذي يفعل هذا، بل إنى سمعت أن كثيراً من اخوتى الآدميين يفعلون مثلى.

- هل خانت ميرفت زوجها ؟

- لست أعرف قردة بهذا الإسم.

- لا داعى للتغابى وقل الحقيقة فالشهود من حولك كثيرون وبعضهم قادر على الفهم.

- لم تخنه .

- شكراً .. مع السلامة.

- لماذا لم تسألنى عن نصيبى من القسمة أسوة بأخى القرموط ؟

- هذا ليس من اختصاصك .

.....

الصرصار :

حرك الصرصور قرون استشعاره متوجساً، وبنيته أن يلتزم الحذر كلما أمكنه ذلك. اهتز تماسكه على الفور حين فاجأه الثعلب بقوله .

- بالطبع أنت أدري المخلوقات بطبيعتك وبيئتك، وبنوع العطور التى تحبها. أليس كذلك ؟

- مؤكد

- ألم تحاول أن ترتقى بنفسك وببيئتك ؟

- حاولت ونجحت.

- كيف ؟

- تعلمت الطيران إلى فوق.

- أعلم هذا، لكن طيرانك لم ينقذك من ضرب النعال.

- وماذا بيدي أن أفعل أكثر من هذا ؟

- ألم تفكر لماذا خلقت ؟

- أنا لا أفكر إلا فى الأطعمة المكدسة بالثلاجات وأرفف المطابخ العامرة ومجاري المخلفات الآدمية.

- ما رأيك فيما يقوله البعض عنك بأن شكلك بشع للغاية ؟

- لقد اعتدت هذا ولم أعد أهتم به إطلاقاً، بل اننى كثيراً ما أضحك وأقهقه عند سماعى مثل هذه النعوت.

- نعوت؟. يبدو أنك مثقف أيضاً. إذن فقل لى : لماذا كان جاويش يحقد على عبد الخالق ؟

- انه صراع المصالح وأنت أقدر منى على فهم هذه اللعبة.

- بتحديد أكثر، هل كان حقده بسبب المنافسة غير المتكافئة أم بسبب الانتقال المفاجئ لعبدالخالق من أجير فقير إلى مالك ثري ؟

- الكفة الثانية هى الأرجح.

- ونعيم ؟

- هذا ما يحيرنى حتى الآن، وأنا كمثقف أستطيع أن أدعى أن بعض الناس يحقدون على الآخرين بلا سبب سوي أنهم يحبون الحقد ولا يستطيعون الحياة بغيره، فلو لم يجدوا أحداً يحقدون عليه فإنهم يحقدون على أنفسهم.

- نعمت يا فيلسوف المجاري الأعظم . كم تريد أن يكون نصيبك من بين الثمانية ؟

أجاب الصرصار بخبث طغى على جبنه الأصيل.

- نحن تسعة .. ألم تحتسب نفسك ؟

- عيب المثقفين أنهم يجلبون لأنفسهم المتاعب بأن يدسوا أنوفهم فيما يعنيهم وفيما لا يعنيهم .. مالك أنت بى ؟ .. كن في شأنك يا أخى .. كم تريد ؟

- إنى أطمع فى عطفك وكرمك، ولو اهديتنى الغنيمة كلها لما مانعت فى ذلك .

تناثرت بالقاعة صيحات استنكار وصفت الصرصور المثقف بالأنانية والجشع . وقال الثعلب.

- شكراً أيها الصرصار الفيلسوف . عد إلى بالوعتك.

- إنى رهن إشارتك.

.....

البومة :

طلبت البومة إطفاء الأنوار قبل أن تتكلم . أجابها الثعلب إلى طلبها ولم يعترض أحد من الحاضرين . سألها.

- لماذا أصيب سليم فجأة ومات فجأة ؟

- لست أعلم .

- لماذا فضلت مديحة الزواج من نعيم ؟

- لأن عبد الخالق كان فقيراً وكانت تخشى عاقبة انتظاره طويلاً.

- ألم تكن تعلم أنه سيصبح فجأة من الأثرياء.

- لا هى ولا غيرها كان يعلم أو كان يمكن أن يعلم بذلك.

- لماذا ؟

- لست أعرف .

- هل كانت على علاقة بسمير أو كانت تفكر فى إنشاء علاقة معه؟

- لا هذا ولا ذاك .

- فلماذا كانت تتردد عليه مثيرة حول نفسها الشبهات؟

- لعلها كانت تريد الإتصال بعبد الخالق من خلاله.

- الإجابات هنا قاطعة ولا محل لكلمة "لعل" أو "ربما" أو "أعتقد".

- لست أعلم .

- إذن ستظل هذه النقطة غامضة وسيؤثر هذا على سهولة الحصول على الغنيمة وعلى نصيبك منها.

- مهما بلغت قيمة الغنيمة فإنها ستضيع منى فأنا وجه خراب ومضيعة.

- كيف تكتشفين الذمم والأماكن الخربة فتحطين عليها بالليل ؟

- بالغريزة.

- ومن أين لك بها ؟

- ولدت بها وليس لى فضل فى ذلك.

- كيف ستكون نهاية عبد الخالق ؟

- أعتقد .. ربما .. لعل ..

- شكراً يا بومتى العزيزة . إن وجهك جميل فعلاً . معهم حق من يتفاءلون به.

.....

الكلب:

وقف الكلب بوجه متجهم مستعرضاً قدرته على النباح بلا مناسبة. انتظر الثعلب أن يكف عن النباح دون جدوي فقد استمرأ الكلب نباحه وخيل إليه ان الحاضرين يكتمون فزعهم من قوته. فجأة صاح به الثعلب.

- كفاك نباحاً يا كلب .

لم يتعجب الحاضرون حين لحظوا على الكلب علامات الخوف والتراجع والاستكانة إذ أغلق فمه تماماً ووقف ممتثلاً لأسئلة الثعلب.

- تاريخك بكامله معروف لدينا. حدثنى عن أهم صفاتك بصراحة.

- الجبن

- وماذا عن الأمانة والوفاء ؟

- ليستا فى كل الأحوال .

- لكن الناس ...

- أنا أدري بنفسي .. أنا كلب بمعنى الكلمة.

- لماذا كان حسين ناقماً على شقيقه حاقداً عليه ؟

- الغيرة القاتلة من النجاح والثروة .

- وماذا عن تلك التى يسمونها برابطة الدم ؟

- أخى حسين لا يهتم بمثل هذه المسميات .

- ولماذا كان ناقماً على زميل طفولته مجدي ؟

- كان يريد أن يستأثر بالغنيمة وحده، وكان مجدي منافساً له.

- ألم يفكر أحدهما فى صاحب المال الحقيقى ؟

- وهل هناك صاحب حقيقى وصاحب مزيف ؟

- لاتجب عن سؤالى بسؤال.

- أياً كان صاحبه فقد فكر كل منهما بطريقته وقرر استغفال هذا الصاحب واستغلاله.

- مارأيك فى الحقد ؟

- رأيى أنه ضروري لاستمرار الحياة وإن كان من غير المستحسن أن نحقد على أقرب الناس إلينا.

- وما طبيعة علاقتك ببقية الحيوانات والحشرات والطيور والزواحف؟

- كلنا نمارس معاً لعبة الحياة أفضل مما يمارسها الآدميون .

- وما هى أهم سمات هذه اللعبة ؟

- قوام لعبتنا الانحطاط والدناءة والحقد ونكران الجميل وإباحة المال

والجنس بلا حدود.

- إنك أكثر المتحدثين صراحة ياأخي .. قل لى ما اسمك بالكامل.

- كلب ابن كلب ابن كلب .

- وكم تقترح نصيباً لنفسك لو حصلنا على الغنيمة ؟

- ليس لدي اقتراح . سوف أعتمد على حنجرتى فى الحصول على ما أريد.

- أبهذه البساطة تتجاهلنى أنا والآخرين ؟

- لست أتجاهل أحداً، لكنى مؤمن بحرية الصراع وبنظرية البقاء للأذكى.

- لماذا لم تحضر الذئب معك كما طلبت منك ؟

- علمت أنه ذهب إلى وليمة مضمونة.

- شكراً يا كلب .. ولا تنس أن صاحب الغنيمة موجود بيننا.

.....

النمر :

رفض النمر الاستجابة إلى نوايا الثعلب الغامضة وأبى أن يجيب عن أسئلته استنكاراً منه لحق الزعامة المشكوك فى شرعيتها. اكتفى بتوجيه نظرات نارية إليه وإلى كل المجتمعين حول المائدة الرئيسية والموائد الأخري، ثم عاد إلى مقعده بثقة أقرب إلى الغرور .. وكان يبدو عليه أنه انتوي أمراً.

.....

العفريت :

قام العفريت من مقعده، وتأكد جميع الحاضرين من ملامحه، لكنه لم يلبث أن اختفى على الفور ولم يندهشوا لذلك. أما الثعلب فبدأ يحاوره كما لو كان موجوداً، وقد تمكن الجميع - بما فيهم الثعلب - من سماع إجاباته بوضوح.

- لماذا لا تظهر بالنهار ؟

- لأنى لا أحب منافسة بنى الإنسان، أما بالليل فهم نيام.

- لأي نوع من الناس تفضل الظهور ؟

- أظهر للمحبين والكارهين والمطمئنين والتائهين .

- وماذا تريد منهم ؟

- أخيفهم فى حياتهم وأرعبهم فى موتهم وأداعبهم حين لا ينتظرون منى مداعبة.

- وماذا عن عبد الخالق ؟

- كم حيرنى هذا المخلوق. لقد أوشكت أن أحبه.

- لماذا ؟

- لقد نظر إلى الخلق من ارتفاع عالٍ جداً يطاول السحاب العلوي بالرغم من أنه واحد منهم خلق من نفس مادتهم.

- ولماذا انتهى به الحال إلى ذلك ؟

- الشك وزيادة الوعى .

- تقصد الشك فى زوجته أم فى صديقه ؟

- بل الشك فى الوجود كله.

- ولماذا لم تقدم له العون مادمت متعاطفاً معه ؟

- لأنه يرفض أي شئ لا يأتيه من ذاته.

- كم تريد نصيباً لك من الغنيمة ؟.

- عملاتكم لاتصرف فى عالمنا.

- والحل إذن ؟

- هناك مسائل فى هذا الكون أكثر أهمية، لم يتوصل أحد لحلولها حتى الآن، كما أن ... لم يكمل العفريت عبارته فقد تلاشى صوته واختفى كما اختفى جسده من قبل، لكنه شوهد بعد ذلك بقليل جالساً على مقعده يدخن البايب.

.....

البغل :

انفجر البغل باكياً. عجز الثعلب عن استدراجه إلى الكلام . حاول إغراءه بالحديث عن الغنيمة فازداد نحيبه. اضطر الثعلب إلى تركه لحال سبيله بين دهشة الجميع.

.....

أمسك الثعلب بالميكروفون وقال بنشوة وغرور.

- أيتها المخلوقات الممتزجة ... مارسوا حياتكم.

لم يكد ينهى عبارته حتى تحولت قاعة الاحتفال إلى ساحة للفوضى العارمة. انقلبت الموائد. القرود تقفز. الصراصير تطير . الكلاب تنبح. البومة تنعق. كلب يضاجع قرموطاً. "قدمت إلى الحفل قافلة من الحمير كانت تعبر الطريق". بومة تضاجع قرداً. عفريت يضاجع نمراً. نمر يضاجع صرصوراً. كلب يضاجع قردة تضاجع كلباً يضاجع حماراً. أطباق تتطاير فى الهواء. البغل يبكى. النمر يطير فوق الموائد يحطمها. الصرصار المثقف يخطب فى الجميع :

"أيتها المخلوقات العظيمة .. يكفيكم فخراً أنكم تنتمون إلى عالم الإنسان، فكلنا نستظل بظل الكون . كلنا نعلم بما حدث لعبد الخالق. لماذا تبكى أيها البغل؟. إنهم يتقاذفون بألفاظ بذيئة تحمل أسماءنا. يسخرون من تلقائيتنا وغرائزنا الفطرية العظيمة. يطيرون إلى السماوات العلا . يسخرون عواطفهم فى خدمة عقولهم ويتعذبون . يسخرون عقولهم فى خدمة عواطفهم ويتعذبون.

لماذا تبكى أيها البغل ؟. نحن ملوك هذه الأرض. لانهتم بعقل أو عاطفة حيث لا ضرورة للاهتمام بأي شئ ".

ازدادت نشوة الثعلب وتعاظم غروره فأمسك بالميكروفون مرة ثانية وقال :

- أيتها المخلوقات السعيدة. لا تعبأوا بسخرية البشر . مارسوا حياتكم.

تعالت صيحات الاستحسان وصرخات المتعة. بدأت المعارك تنتقل من مكان إلى آخر. علا الضجيج يصم الآذان. تكومت بعض الجثث فى أركان القاعة ولم يعرف أحد أسباب النزاع. توافدت حيوانات وحشرات جديدة من أماكن مجهولة حاملة معها آلات موسيقية شرقية وغربية. القتل والرقص يمتزجان.

قال النمر للثعلب :

- متى سنتوجه للبحث عن الغنيمة واقتسامها ؟

ابتسم الثعلب وقال بعينين منطفئتين :

- لا تتعجل الثراء ياعزيزي فقد تهلك دونه. اندمج. اندمج مع السعداء.

سيطرت الحمير على كاميرات التليفزيون وميكروفونات الإذاعة بعد أن هرب الآدميون المسئولون عن تشغيلها. قفز كلب على نمر فوقع على الأرض. تناوله النمر وقذف به إلى زجاج نافذة قريبة فانكسر الزجاج وسقط الكلب مضرجاً فى دمه. وقف على حافة النافذة المكسورة عصفور أخضر صغير. منقاره أحمر . ذيله أصفر. رآه الثعلب فسارع إلى الميكروفون وقال باهتمام شديد.

- أنظروا. لقد حضر العصفور. انها ساعة الصفر.

صمت الجميع وراحوا يتأملون جمال العصفور الذي كان يترنم بأغنية جميلة. قال الثعلب.

- كونوا على أهبة الإستعداد .. إنها بداية النهاية .

## -٣٧-

أمام ذهول ميرفت لم يستطع المحقق استجوابها. فقدت فى زوجها الرجل والإبن والأب. رآه الآخرون عملاقاً وهى التى عرفت وحدها كم كان عبد الخالق وديعاً كطفل. لم تعبأ بثروته وقد نشأت فى بيئة ثرية. مأساتها أن عبد الخالق لم يصدق أنها تحبه ولم يعرف كيف يحبها ولم تعرف السبب فى ذلك.

كان سمعها هائماً فى حلو كلماته بين أحضانها. لم تنتبه إلى كلمة واحدة من الوصية ولم تلتفت إلى قارئها. "أنا عبد الخالق سليم محمد سليم. أكتب هذه الوصية وأنا فى كامل قواي العقلية وبكامل إرادتى. أوصى بتسليم شركتى وكل ممتلكاتى إلى الدولة بحيث تؤول إليها ملكيتها كاملة. توقيع : عبد الخالق سليم . بتاريخ ٢٢ سبتمبر عام...".

-٣٨-

أفاد التقرير الطبى أن وفاة عبد الخالق سليم جاءت طبيعية بسبب إصابته بهبوط حاد مفاجئ. كما أوضح التقرير أن البصمات المرفوعة من كوب المياه كانت بصمات عبد الخالق وحده، وأن كمية محلول السيانيد الناقصة من الزجاجة المحرزة تعادل تماماً الكمية المذابة فى الماء الموجود بالكوب الذي لم يقترب منه أحد.

أما حسين سليم فقد قتل بفعل خمس طعنات قوية نافذة فى الصدر أدت إلى وفاته على الفور.

-٣٩-

روي سمير للمحقق ملابسات الجريمة كما شاهدها ثم عاد إلى مرسمه، خلع ملابسه كاملة وجلس عارياً. أشعل سيجارة وراح يقلب بعينيه فى

جدران المرسم ومحتوياته التى عاشت أيامه مع عبد الخالق واستمعت إلى مناجاتهما الحائرة. آلمه أن يشك فيه صديق عمره ولم يسعفه الوقت للإشفاق عليه. تذكر أبويه. مات عبد الخالق. أين هما الآن؟.. انه لا يمتلك أكثر من علبة سجائره وبقايا زجاجة من الخمر. فكر فى بيع لوحة الكوخ الأخضر التى تركها لهما قبل رحيله. الفلوس مرة أخري. الخزانتان لا ينتفع بمحتوياتهما أحد.أنهى الخالق حياة عبد الخالق. ينبغى أن يتوقف دهراً أمام هذا الموقف أو أن يقصف ريشته ويلقى بألوانه إلى الجحيم.

انكب فجأة وبأنفاس لاهثة على مشروع لوحة جديدة طرأ بمخيلته. استقرت فكرتها الواقعية فى ذهنه كلمح البصر. امرأة عارية بين الحياة والموت وطفل يولد ورجل معلق فى حبل وخزانتان مفتوحتان وأكوام من أوراق النقد مبعثرة على الأرض.

حين انتهت علبة السجائر كانت اللوحة ممثلة فى خطوط تجريدية متعرجة نائمة على الأرض ومجموعة شبه دائرية من أشكال مدببة تشبه الأنياب المفتوحة عن آخرها لحيوان ضخم ولكنها ليست بأنياب، وشئ يكاد يشبه الجمجمة - وما هو بجمجمة - معلق بخيط هابط من السماء وسيول من الألوان الداكنة تغمر اللوحة فيما يشبه أمواج محيط هادر بينما تتخلل اللوحة بقع بيضاء قليلة متناثرة فى اتجاهات يبدو ألا رابط بينها.

-٤٠-

موسيقا غامضة تنبعث من فضاء سحيق فى أرجاء المرسم، تتسلل فى رفق إلى قلبه. مجنون من يدمر حياته لأي سبب. اللعنة على الخزانتين. لن أعود إليهما ما حييت. عاد إلى اللوحة. قرد يرقص فى الهواء وليس بقرد. امتلك عبد الخالق المال ولم يمتلكه ومات بسكتة قلبية وقتل مجدي من أجل المال وليس معى قرشاً واحداً واعلموا أنها الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد وأنا الوريث الوحيد للخزانتين وملحقاتهما من تراب على الأرض ومبان أسمنتية كريهة دون ادعاء للزهد.

أنا الوريث الوحيد لكل هذه الأشياء حين يقتتل النمران حتى الموت أو حين يقتلهما أحد.

قال لنفسه إن الحياة لجديرة بأن يعاد فيها النظر مرة أخري بعد أن توفى عبد الخالق سليم.

ارتدي ملابسه وغادر مرسمه إلى حيث لايعلم.

سعيد سالم

الاسكندرية فى يونيه ١٩٨١.

## صدر للمؤلف

| | | | |
|---|---|---|---|
| ١ - جلامبـــو | رواية | ١٩٧٦ | الاسكندرية |
| ٢ - بوابة مورو | رواية | ١٩٧٧ | الاسكندرية |
| ٣ - عمالقة أكتوبر | رواية | ١٩٧٩ | هيئة الكتاب - القاهرة |
| ٤ - آلهة من طين | رواية | ١٩٨٥ | هيئة الكتاب - القاهرة |
| آلهة من طين | طبعة ثانية | ١٩٨٦ | دار الجليل - دمشق |
| ٥ - عاليها أسفلها | رواية | ١٩٨٥ | وزارة الثقافة - دمشق |
| عاليها واطيها | طبعة ثانية | ١٩٩٣ | دار ومطابع المستقبل - بالقاهرة والاسكندرية |
| ٦ - قبلة الملكة | مجموعة قصصية | ١٩٨٧ | اتحاد الكتاب العرب - دمشق |
| ٧ - الشـــرخ | رواية | ١٩٨٨ | دار طلاس - دمشق |
| ٨ - الأزمنة | رواية | ١٩٩٢ | روايات الهلال - القاهرة |
| ٩ - الموظفون | مجموعة قصصية | ١٩٩٢ | اتحاد الكتاب العرب - دمشق |
| ١٠ - الفلوس | رواية | ١٩٩٣ | دار ومطابع المستقبـل بالقاهرة والاسكندرية |

**تحت الإصدار:**

| | |
|---|---|
| ١ - حالة مستعصية | رواية |
| ٢ - كف مريم | رواية |
| ٣ - حارة اليهود | مجموعة قصصية |
| ٤ - هوي الخمسين | مجموعة قصصية |